

توفيق الحكيم



سلك الطفليين

أو حياة صبي

دار نشر مصر للطباعة والنشر

2271
.255
.361

2271.255.361

al-Hakim

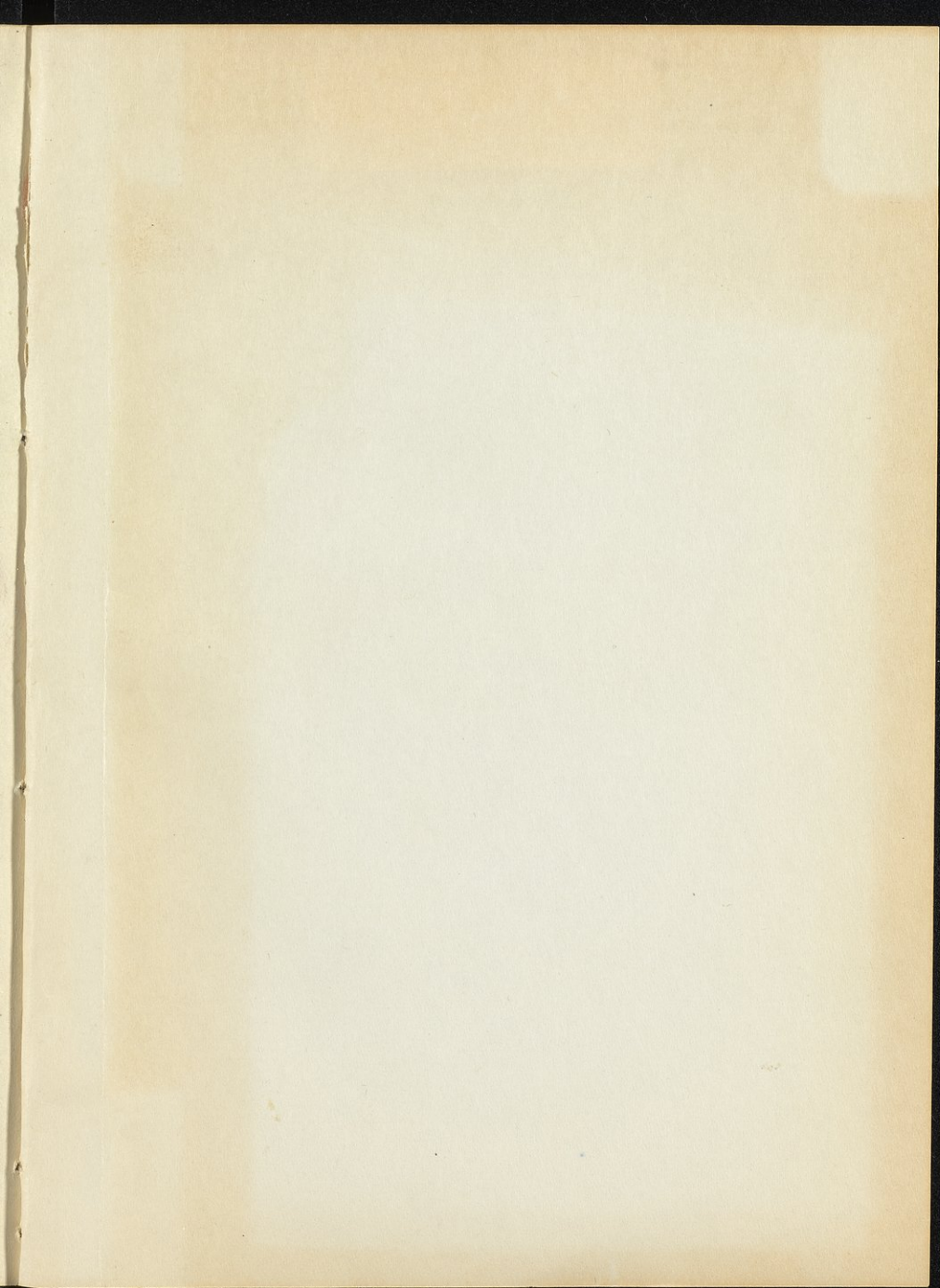
Malik al-tufayliyin

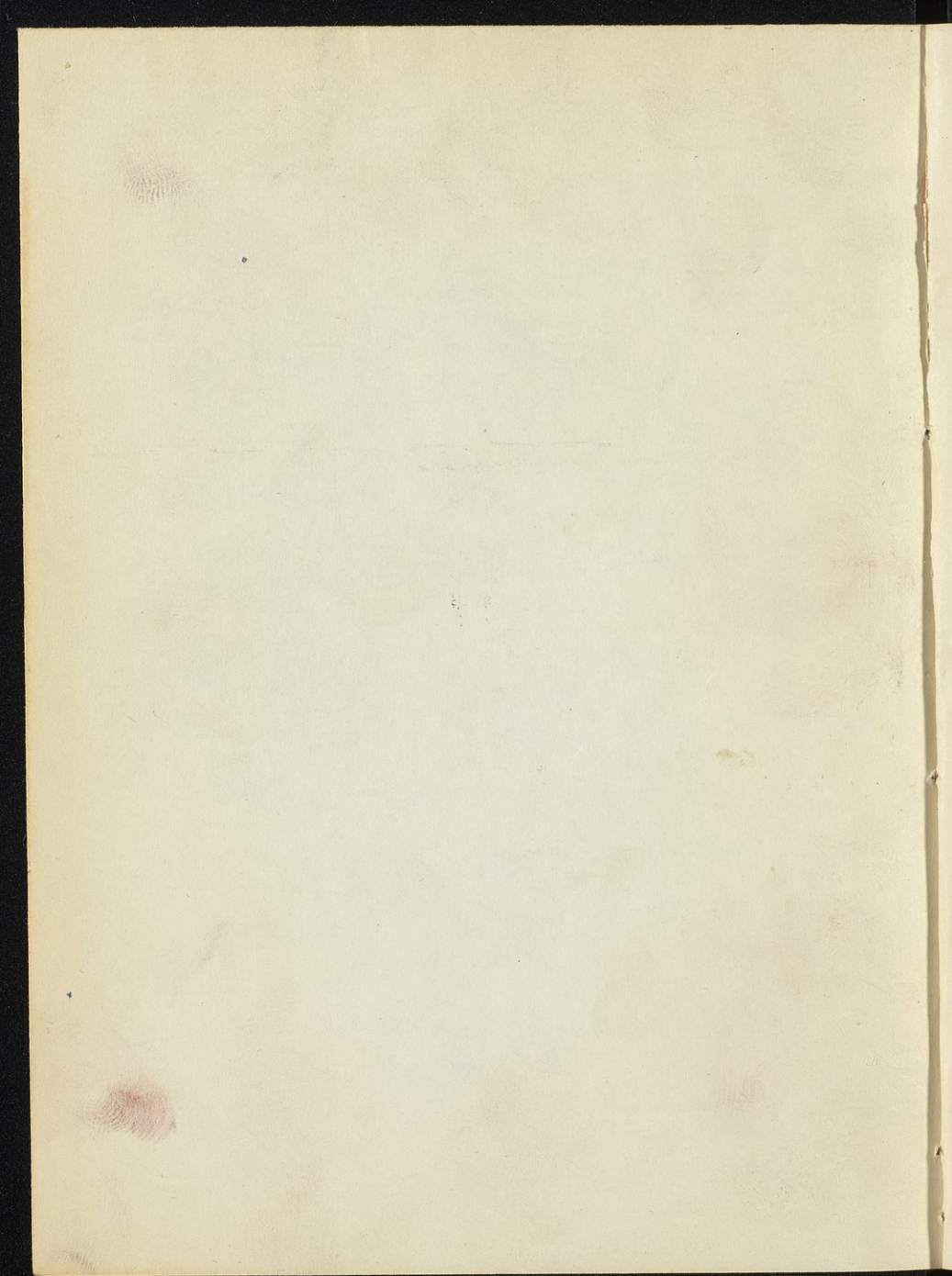
[illegible]

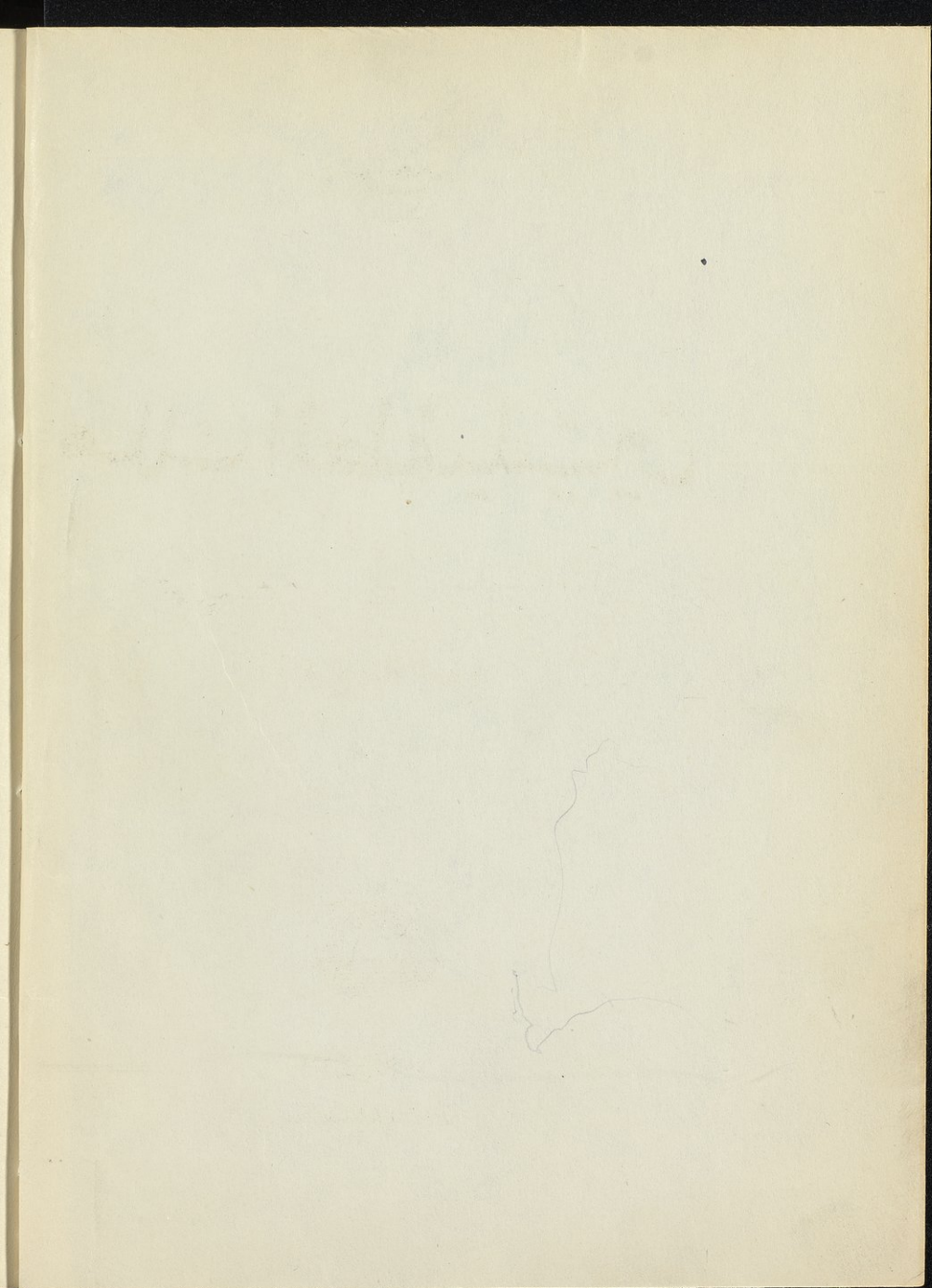
Princeton University Library



32101 072538984







تَوْفِيقُ الْحَكِيمِ

Tawfiq al-Hakim

ملك الطفيليين

Malik al-Tufayliyyin
أو

(تاريخ مائة معزة)



مكتبة المطبع والنشر

دار سعد مصر للطباعة والنشر

رسالة إلى

(مكتبة)

مكتبة

فهرس

مؤلفات توفيق الحكيم

التي نُشرت في اللغة العربية

- محمد : الطبعة الأولى عام ١٩٣٦ والطبعة الثانية ١٩٣٦
- شهرزاد : الطبعة الأولى عام ١٩٣٤ والطبعة الثانية ١٩٤٤
- أهل الكهف : الطبعة الأولى عام ١٩٣٣ والطبعة الثانية ١٩٣٣
- عودة الروح « في جزئين » : الطبعة الأولى عام ١٩٣٣ والطبعة الثالثة عام ١٩٤١ والطبعة الرابعة ١٩٤٤
- أهل الفن : الطبعة الأولى عام ١٩٣٤
- المرحيات « في مجلدين » : المجلد الأول : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصه في القلب ، جنسنا اللطيف — عام ١٩٣٧
- المجلد الثاني : الخروج من الجنة أو الملهم ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة تحطمت — ١٩٣٧
- عصفور من الشرق : الطبعة الأولى عام ١٩٣٨ والطبعة الثانية ١٩٤١ والثالثة ١٩٤٣
- يوميات نائب في الأرياف : الطبعة الأولى عام ١٩٣٧ والطبعة الثانية لحساب وزارة المعارف ١٩٣٧
- عهد الشيطان : الطبعة الأولى عام ١٩٣٨ والطبعة الثانية ١٩٤٢
- زراعة المعبود : الطبعة الأولى عام ١٩٣٩ والطبعة الثانية ١٩٤٠
- سمار الحكيم : الطبعة الأولى عام ١٩٤٠ والطبعة الثانية ١٩٤٢
- تحت شمس السكر : الطبعة الأولى عام ١٩٣٨ والطبعة الثانية ١٩٤١ والطبعة الثالثة ١٩٤٥
- سلطان الظلام : الطبعة الأولى عام ١٩٤١ والطبعة الثانية ١٩٤٢

2271
255
361

تابع مؤلفات توفيق الحكيم

القصر المسحور	: بالاشتراك مع الدكتور طه حسين بك عام ١٩٣٦
تاريخ حياة معدة	: الطبعة الأولى عام ١٩٣٨ . والطبعة الثانية عام ١٩٤٦
براكسا أو مشكلة الحكم	: عام ١٩٣٩
نشيد الانشاد	: عام ١٩٤٠
من البرج العاجي	: عام ١٩٤١
تحت المصباح الأخضر	: عام ١٩٤٢
بجماليون	: الطبعة الأولى عام ١٩٤٢ والطبعة الثانية ١٩٤٤
مليان الحكيم	: عام ١٩٤٤
زهرة العمر	: الطبعة الأولى عام ١٩٤٣ والطبعة الثانية ١٩٤٤
الرباط المقدس	: عام ١٩٤٤
حمادى قاللى	: عام ١٩٤٥
شجرة الحكم	: عام ١٩٤٥

والتي نشرت في لغة أجنبية

عمر زائد	: ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكوت عضو الأكاديمية الفرنسية .
عودة الروح	: وترجم إلى الإنجليزية ونشرت مختارات منه في لندن عام ١٩٤٢ : ترجم ونشر بالروسية في لينجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ .
يوميات نائب في الأرياف	: وبالإنجليزية ونشرت مختارات منه في لندن عام ١٩٤٢ : ترجم ونشر بالفرنسية طبعة أولى ١٩٣٩ وطبعة ثانية ١٩٤٢ بمقدمة للدكتور حافظ عفيفى باشا
أهل الكهف	: وترجم إلى الإنجليزية ونشرت مختارات منه ١٩٤٣ . وباللغة العربية ١٩٤٥ : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بمهيد تاديني لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية . وترجم إلى الإيطالية ١٩٤٤
هصفور من الشرق	: ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١ .

بيان

ما دمتا في صدر « المعدة » ، فلأبين للناس كيف « طبخت »
لهم هذا اللون من ألوانه الأدب . لقد استحضرت اللحم والبقل
والتوابل والأبازير من هانوت أربعة مشاهير : « الجاهظ »
و « ابن عبد ربه » و « الخطيب البغدادي » و « برقع الزمان »
فقد يهمني حقاً وأسال لعابي ما وجهته لبيهم من اللذائذ
والطرائف . غير أني رأيت كل هذا مبغضاً ضمن بضاعتهم .
وملقى على غير نظام ، حتى وقع الملح على السكر . كما وجهت
أكثر هذه العناصر ثلثة مكررة بنصها وتفسيرها عند الأربعة ،
كل يفسرها من هانوته نفس الوضع ، ويبرزها عين العرصة .
فعلأت برى مما خبرت من أطايرها وزهبت به الى « مطبخ »
فتى ، حيث مزجت ومخلطة وجعات منه « عجيبة » واحدة ،
صنعت منها هذه القصة الواحدة المتصلة الفصول ما

1

1. The first part of the paper is devoted to a general
 discussion of the problem. It is shown that the
 problem is of great importance and that it has
 not been completely solved. The author then
 proceeds to a detailed analysis of the problem.
 2. In the second part, the author discusses the
 various methods which have been proposed for
 solving the problem. He shows that each of these
 methods has its own advantages and disadvantages.
 3. The third part of the paper is devoted to a
 comparison of the various methods. The author
 shows that the method proposed by him is the
 most efficient and accurate.

21

الفصل الأول

اتصف النهار . وصاح مؤذن الظهر ، لا من مسجد ذلك الحى
من أحياء « المدينة » : لكن من بطن « أشعب » : أشهر الطفيليين فى
عصره ، وأظرفهم حديثا ، وأقبحهم وجهاً ، وأزراهم هيئة ، وأجملهم صوتاً
وأحدثهم فى فنون الغناء .

وكان جالسا إلى معشوقته « رشا » من أول النهار ، يحادثها
ويضاحكها ويطارحها الغناء منشداً :

دموع عيني لها انبساط ونوم عيني به انقباض
وكانت الحسنة متكئة على فراش من ديباج أخضر فى دارها
الصغيرة ، أمام بستان قد أزهر بنبت الربيع . فأجابته مترنمة ، والسحر
والفتنة يكادان ينطقان فى عينيها :

هذا قليل لمن دهمته
فتمهد العاشق ورفع عقيرته :

فهل لمولاتى عطف قلب أو للذى فى الحشا انقراض
فأجابته الجميلة فى ابتسامها الفاتن ، ولفظها العذب وصوتها الرخيم :
إن كنت تبغى الوداد منا فالود فى ديننا قراض

فتهدأ شعب هذه المرة نهدياً طويلاً ، وأرسل بصره إلى النافذة ،
ورأى ميل الشمس ، فتأمل والتفت يمنة ويسرة ثم قال للحسناء
صاحبة الدار :

— مالي لا أسمع للطعام ذكراً ؟

فتغير وجه الجميلة وقالت :

— سبحان الله ! أما تستحي يا شيخ ؟ أما في وجهي من الحسن

ما يشغلك عن هذا ؟

فسكت أشعب كالخجل . ثم جعل ينظر إلى وجهها وعينيها متمسكاً
بأهداب الصبر والقناعة .

فقالت له :

— أضع في غنائك ، فانك حسن الغناء . أسمعني صوتاً لم أسمع من

قبل . ما هو أحسن الغناء عندك ؟

فأجاب أشعب بغير تردد :

— هو نشيش المقل !

فقالت له في شيء من الامتعاض والتأنيب :

— أهذا كلام يقال في مثل هذا الموقف الذي نحن فيه ؟

— صدقت . لقد كان يجمل بي أن أتحدث عن الحب الذي في الحشا .

وأمسك بالعود مرة أخرى ، فأسرعت الجارية تقول : يا أبا عبد الله

— نعم ، صف لي مافي الخشا من الحب .

فنظر إليها العاشق ملياً : . . .

— وماذا كنت أصنع إذن منذ الصباح ؟

— أزد في الوصف .

— وصف ماذا ؟

— مافي الخشا من الهوى .

— من « الهوا » . . . هذا والله صحيح .

ورفع العاشق عقيرته بالغناء :

إذا كان في بطي طعام ذكرتها . . . وإن جعت يوماً لم تكن لي على ذكر
ويزداد حبي إن شبت تجدداً . . . وإن جعت غابت عن فؤادي وعن فكري

ولم تر الجارية مع صاحبها هذا حيلة ، فقامت تهيب له الطعام . ولم
تنص ساعة حتى فاز أشعب بيفيته الحقيقية ووضع أمامه الخوان . وكان
هذا العاشق الولهان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر ولسدر
وانبهر ، وتربد وجهه ، ولم يسمع ولم يبصر . فتناول القصة الوهي
كجمجمة الثور فأخذ يحضنها ، وما زال ينهشها طويلاً وعرضاً ورفعاً

وخفضاً ، لا يفصل ثمرة قط عن ثمرة ولا يرمى بنواة قط ولا ينزع قمحاً
ولا ينفق عنه قشراً ولا يفتشه مخافة السوس والذود . فلما رأت صاحبته
ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، لم تزد على أن همست كالمخاطبة لنفسها :

— هذا والله هو العشق !

— ثم نظرت إليه ، وقد انتقل إلى ألوان أخرى من الطعام جعل
يخاطبها قبل أن يد إليها يده :

— بارك الله فيك من « فالودج » صاف يقرأ نقش الدرهم من
تحتك ! بارك الله فيك من ثريدة ملساء كأنها خد الخبيب ! بارك الله فيك
من خبز رقاق كأنها آذان الفيلة !

وهجم بيديه كأنه طالب ثار ، فابتدرته الجارية قائلة :
— أتجنني ؟

فلم يجب ، ولم يلتفت إليها . ولم يبد عليه أنه سمع منها شيئاً . ومضى
في التهامه ومضغه . فتوسلت إليه أن يتكلم فصاح متبرماً :

— أما سمعت قول من قال : « إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن في
حال أكلك » ، وإن كلك من لا بد لك من جوابه فلا تجبه إلا يقول نعم ،
فإن الكلام يشغل عن الأكل . وقول « نعم » مضغة .
فضحككت القينة . ثم قالت :

— ولكنك لم تجبني حتى بقول « نعم » .
فنظر إليها وفيه ممتلئ نظرة من يسألها عما قالت . فقد نسي ،
فأجابت :

— سألتك « أتجبنى » ؟
فلم يلفظ حرفاً ، وأين له الفم الذى يلفظ شيئاً ؟
فسكتت الجارية لحظة ، ثم رأت أن تحتال عليه وتخرجه فقالت :
— أتحب أبا بكر الصديق ؟

فبلع لقمة وشرب جرعة من ماء ، ونظر إليها نظرة المعتذر المشغول
عن الجواب ، غير أنها مضت في تضيق الخناق عليه :
— أتحب عمر بن الخطاب ؟

وصادفت العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة ، فأجابها على عجل ويده
مسرعة إلى الخوان :

— ما ترك الطعام في قلبى حباً لأحد !

قام أشعب عن الخوان الذى كان ، وهو يتجشأ ويقول لصاحبه :
— جعلت فداك ما أكرمك ! إذا كان غداً فأصنع لى هريسة ،
فأنت أحق بها .

فقال له باسمه :

— إنك لشديد التسيان ، أما تذكر أنك من أيام قد تشبهت على
« هريسة » فبعثت بها إليك ؟

فصاح العاشق طرباً :

— نعم . فاني أشتهى عليك إذن « لوزينج » رق قشره واشتدت
عذوبته ، غريقاً في سكر ودهن لوز ... يشد فؤاد الحزين ويرد نفس
الشجين ، ابعث لي به غداً أصلحك الله ، مع شيء من النبيذ وما يصلحه .
فقال :

— أنسيت أني بعثت إليك منذ ليال هذا اللوزينج وهذا النبيذ .
فقال :

— إذن فاني أشتهى ، حفظك الله وأبقاك ، ثريدة دكنا من
القلقل ، رقطاء من الحمص ، ذات جناحين من اللحم فأضرب فيها كما
يضرب الولي السوء في مال اليتيم .

فقال كالتحاطبة لنفسها - ساخرة :

— أبقاك الله وحفظك ، رأينا الحب يكون في القلب ، وجبك

ليس يجاوز المعدة !

— لم أسمع منك ! ماذا قلت ؟

— لا شيء ! أخبرني أنت . أين دارك ولماذا لم تدعني يوماً إلى طعامك ؟

فنظر إليها أشعب نظرة الجزع والدعر :

— دارى ؟ أما علمت أنى أسكن عند السكندى !

— ومن السكندى ؟

— هو أبخل أهل الأرض طراً ، وهل يستطيع ما كن أو جار أن يصنع طعاماً دون أن يبعث إلى صاحب الدار بطبق . إنه لا يزال يقول للساكن وربما للجار : « إن فى الدار امرأة حبلى ، وإن الوحى ربما أسقطت من ربح القدور الطيبة ، فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة . فإن لم تفعلوا ذلك بعد إعلامى إياكم فكفارتكم أن أسقطت غرة عبد أو أمة » ، فكان بذلك ربما يوافى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام . فبأكل هو وعياله ويقول لهم : « أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع . فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان » ، فهل تريدن أصلحك الله ، أن أدعوك إلى دار مثل هذا الرجل ؟

فضحكت وقالت :

— أفقر هو ؟

— إنه أغنى أهل المدينة !

فصمتت الجارية لحظه . ثم نظرت إلى أشعب ملياً وقالت :

— ولكنى أريد أن أموت وآكل من طعامك !

فتفكر العاشق قليلاً ثم أجاب :

— مهلا سيدتي . سادعوك إن شاء الله إلى طعام وشراب وغناء ..

— متى ؟

— يوم يحين وقت ذلك .

ثم أسرع فاستوى قائماً ومد إليها يده مودعاً . فمدت إليه يداً صغيرة
كأنها حلية من عاج . فلمح في إصبعها خاتماً . فاستبقت يدها في يده وقال
في صوت يسيل رقة ولطفاً :

— سيدتي جعلت فداك ! ناوليني هذا الخاتم الذي في إصبعك

لأذكرك به .

فسحبت يدها في رفق وتضاحكت في خبث وقالت :

— إنه ذهب وأخاف أن تذهب .

ثم أسرع فالتقطت من الأرض عوداً يابساً سقط عن شجرة قرب
النافذة وأعطته إياه قائلة :

— ولكن خذ هذا العود لملك تعود !

—

—

—

—

—

الفصل الثاني

جاء العصر وأشعب يتسكع في الأسواق إلى أن انتهى به المطاف أمام بستان من بساتين الكندي . فوقف وأرسل بصره ، فوجد صاحبه جالسا تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلا فيه لحم سكباج بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أربع بيضات . فاقرب منه ومر به مسلما عليه . فرد الكندي السلام قائلا : — هلم عافاك الله .

وإذا أشعب أسرع من خطف البرق في صحن السماء قد اتشنى راجعا يريد أن يعدى جدول الماء . فصاح به الكندي وهو يأكل :

— مكانك ، فإن العجلة من عمل الشيطان .

فوقف أشعب مأخوذاً . . . فسأله الكندي :

— تريد ماذا ؟

فأجاب أشعب :

— أريد أن أتعدي .

فخملق فيه الكندي :

— ولم ذلك ؟ وكيف طمعت في هذا ؟ ومن أباح لك مالي ؟

فقال أشعب :

— أو لست قد دعوتني ؟

فأجاب الكندي :

— ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحق مارددت عليك السلام . ماذا

كان بيننا غير سلام ورد السلام ، أى كلام بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال . وقول بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف .

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه . وجعل أشعب ينظر إليه لحظة ثم قال له :

— لقد رأيتك تأكل وحدك .

فبلغ الكندي ريقه ثم قال :

— ليس علىّ في هذا الموضع مسألة . إنما المسألة على من أكل مع الجماعة

لأن ذلك هو التكلف . وأكلى وحدى هو الأصل . وأكلى مع غيره

زيادة فى الأصل . وإذا كانت الوحدة خيراً من جليس السوء . فإن جليس

السوء خير من أكل السوء . لأن كل أكل جليس . وليس كل

جليس أكل

فقال أشعب متخائلاً :

— إنما أردت أن أوّاك لاسخنيك وأنفى عنك اسم البخل .

فأجاب الكندي وهو يلتقى فى حلقه زيتونة :

— لا أعدمى الله هذا الإسم . فانه لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال ، فلم إلى المال وأدعنى بأى اسم شئت . فقال أشعب :
— ولا يقال أيضاً فلان سخي إلا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم . فأنت قد اخترت أحسنهما وأوضعهما .

فقال الكندى :

— بينهما فرق .

فقال أشعب :

— ما هو ؟

فأجاب الكندى :

— فى قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال فى ملكه . وفى قولهم سخي إخبار عن خروج المال من ملكه . فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظاً ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعاً . والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة ، أما الحمد فهو ربح وسخرية والاستماع له ضعف ! وماذا ينفع الحمد إذا جاع البطن وعرى الجلد وضاع العيال وشتت الحساد ؟
وظل يا كل ، وأشعب ينظر إليه ، حائقاً فى دخيلة نفسه على هذا اللؤم ، الذى لا تنفع فيه حيلة . غير أنه تلطف له ودنا منه قائلاً :

— وما عليك لو جلست إليك ساعة أغنيك حتى تطرب وأضحكك

حتى يزول عنك هذا القطوب .

فصاح النكندى :

— لا أريد أن أطرب الساعة ولا أن أضحك .

— وما يمنعك من ذلك ؟

— يمنعني منه أن الانسان أقرب ما يكون من البذل والعطاء إذا

طرب وضحك .

فسقط في يد أشعب ولم يدر من أى مدخل يدخل إلى هذا الرجل ،

وهو كلما فتح له باباً أغلقه . ولم يقنط أشعب مع ذلك . وخطر له خاطر

أعجبه . فأسرع يقول لصاحبه :

— لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل دارك الخالية

وقبل دفع الأجر وقضاء الخرائج والوفاء بالشرط ...

فأبرقت أسرة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال :

— وأين هو عافاك الله ؟

— إذا رأيت أن أدعوه ..

— متى ؟

— الليلة إلى عشائك .

— عشائى !

وعاد إلى قطوبه ، فأراد أشعب أن يهون عليه الخطب فقال له :

— لا تتكلف شيئاً لهذا الضيف ، إنه يرضى بما حضر .

فأسرع الكندي يقول :

— ليس يحضر شيء ، وقولك « بما حضر » معناه أنه لا بد من أن

يقع على شيء .

فقال أشعب :

— قطعة مال ...

— وقطعة مال أليست هي شيء ؟

— نكتفي بالشرب إذن على الريق .

— لو كان عندنا نبيذ كنا في عرس .

فراى أشعب أن ينجله ويستحثه فقال له :

— أنا أحضر النبيذ .

فقال الكندي للفور :

— إذا صرت إلى إحضار النبيذ فأحضر أيضاً ما يصلح للنبيذ .

فقال أشعب :

— ليس ينبغي والله من ذلك ومن إحضار النقل والريحان إلا أن

أحسب أنا صاحب الدعوة وليس يجوز ذلك ، إلا أن يكون لك فيها أثر .

فتفكر الكندي لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :

— لقد انفتح لي باب : لكم فيه صلاح وليس عليّ فيه فساد .

والتفت إلى نخلة عالية منسأة كأنها ثعبان قائمة في طرف من أطراف
البستان وقال :

— في هذه النخلة زوج يام ولها فرخان مدركان ، وإن نحن وجدنا
إنساناً يصعدُها . ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحد
« طباهجة » والآخر « كردجا » فكان نعم العشاء ، فهل لك يا أشعب
في صعود هذه النخلة .

فنظر أشعب إلى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ، وصاح :
— هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها إلا إذا كان اليوم آخر عمرى ،

وأردت من ذلك دق عنقى ، اللهم اغنى عنك وعن طعامك يا شيخ !
وأراد أن ينصرف يائساً ، ولكنه فكر في أمر عشاءه وليس في
المدينة الليلة وليلة ولا عرس ينسل إليه فعاد ينظر إلى النخلة ، فرأى مرة
أخرى أن علوها الشاهق يملأ النفس رعباً ، وأدرك أن صعودها لا يقدم
عليه إلا من طلب الموت ، فأخبر الكندي أن يعفيه وأن يطلب في
الجيران إنساناً يصعدُها ، فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك ،
ودلهم بعض الناس آخر الأمر على أكار تلك حرقه ، فما زال الرسول
يطلبه حتى وقع عليه ، فلما جاء ونظر إلى النخلة تردد هو أيضاً ، فما زالوا
به بشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة ، فلما صار في أعلاها
طار أحد الفرخين ، فانزل الآخر وسلّمه إلى الكندي ، ووقف يتصبب

عرقا في انتظار الأجر ، فأخرج الكندي « فلساً » وضعه في يد الأكار
فنظر فيه مليا ثم أراه للحاضرين من الجيران والمجاهدين ، فقالوا جميعاً :
— فلساً بعد هذا الجهد كله ، وهو غني ! لو كان أعطى درهما على
الأقل ، إنه ذو مال !

فالتفت إليهم الكندي صامحاً :
— إني لم أجمع هذا المال بمقتولهم فأفرقه بمقتولكم ! وأشاح بوجهه
عنهم والتفت إلى أشعب قائلاً :
— الآن قد ظفرتنا بالعشاء ، فابعث لنا في طلب صاحبك
الساكن الجديد .

فنظر أشعب إليه شزراً :
— فرخ يمام واحد ، هو « الضباهج » و « الكردناج » وهو كل
العشاء !

فتفكر الكندي لحظة ثم قال :
— انتظر ، لا تبرح .

وأشار إلى الأكار الواقف يتميز غيظاً ، فترضاه وأغراه وذهب به
وغبرا مليا ، ثم عادا يحملان أرزا بقشرة ، وليس بهما شيء مما خلق الله
إلا ذلك الأرز . فلما صار الكندي إلى بستانه كلف الأكار أن يجشه

في مجشة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه . إلى أن فرغ الآكار
من ذلك كله فكلفه الكندى أن يطحنه على ثوره وفي رحاه . حتى
فرغ من طحنه . فكلفه أن يغلى له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء
الحار لأنه به أكثر نزلا ، ثم كلف الآكار أن يخبزه . ثم طلب إلى شعب
وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا له في الجدول الشصوص
للسمك . وأن يسكروا الدرياجة على صغار السمك كي لا تدخل في السواق ،
وأن يدخلوا أيديهم في حجرة الشلابي ، حتى يصيبوا من السمك شيئا
يحمل كبابا على نار الخبز تحت الطابق فلا يحتاج من الحطب إلى كثير .
فما زال أشعب منذ ذلك العصر إلى الليل في كد وجوع وانتظار إلى أن
أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل ، وجاء الخبر من بيت
الكندى أن اليمامة التي كان قد بعث بها لتطبخ طباجها ، قد نضجت ،
فصاح الكندى صيحة الظفر :

— يا شعب ! هلموا إلى عشاى ، وهنيئا مريئا لكم طعامي ، فأحضر
صاحبك إلى دارى تجدوا الخوان قد نصب كأنه إوان كسرى
وعرش هرقل !

جئى أشعب إلى صديق له من طرازه يدعى « بنان » فقص عليه

الأمر وتوصل إليه أن يأتي معه إلى دار الكندي فيظهر له أنه الساكن
المنتظر حتى يبرأ أشعب من وعده : فاذا انتهى العشاء . وعاب الصديق
الدار كان له أن يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ، ولم يكن
عند بنان في تلك الليلة ما يتعشى به هو أيضاً . فاعلم أن العشاء مضمون
حتى خرج من داره الخاوية لوقته مع أشعب . . وسارا في الطريق فأوصاه
أشعب أن يفهم الكندي أول الأمر أنه قابل الكراء وقضاء الخوانج
والوفاء بالشرط .

فالتفت بنان الى صاحبه قائلاً :

— قد فهمت دفع الكراء وقضاء الخوانج فما معنى الوفاء بالشرط ؟

فأجاب أشعب :

— في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعير الشاة ،

ونشوار العلوقة ، وأن لا يخرجوا عظام ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون

لله نوى الثمر وقشور الرمان ، وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنهم لا يحطون

في بيته .

أقبل الضيفان على دار الكندي فألنياه قد أعد الخوان وجلس في

انتظارهما يتماظرو يقول :

ومن البلية في الموائد أن يرى
قوم جوع في انتظار القادم
فقد أشعب من الفور أمام الطعام وأجلس زميله جواره وهو يقول:
سواء علينا قدموا أو تأخروا
نوافي مع الطباخ ساعة يعرف
وأشار إلى صاحبه بنان بعد أن غمره بكوعه : لقد انتظرت صاحبي
هذا انتظار الآكل للشعب !
فقال الكندي :

— انتظرته إذن قليلاً ؟

فأجاب بنان للفور :

— نعم ، لقد انتظرتني مقدار ما يأكل إنسان رغيفاً !

وتناول الخبز . فقال الكندي : لقد انتظرك إذن طويلاً .

ولم يلتفت الضيفان إلى صاحب الدار ولم يحياه بعد ذلك . وأشعب
وبنان إذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد منهما حظي الطيبات ، فما جاءت
القصة فيها الثريدة كهيئة الصومعة مكحلة بتلك اليمامة المعهودة حتى أخذ
أشعب الذي يستقبله ثم أخذ ماعن يمينه وأخذ مابين يدي صاحب الدار ثم
مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك ، وعارضه زميله بنان وحاكاه فلما
أن نظر الكندي إلى الثريدة مكشوفة القناع مسلوحة عارية والفرخ كله بين

يدى أشعب وزميله إلا قطعة جناح صغيرة بين يديه. تناولها فوضعها قدام الضيف الجديد واحتسب بها في سبيل الكرامة والبر والضيافة وهو يتميز ويقول ليخفى غضبه العظيم :

— قالت الحكماء : « عليكم بشرب الماء على الغداء » فلو شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا . وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شعبان وهو لا يدري . .

فقال بنان :

— شعبان ! والله نحن إنما نسمع بالشبع مماعا من أفواه الناس ! ثم مديده إلى الخبز . فغمزه أشعب هامساً :

— تمهل وتمسح ، الا يظن إلينا ويفر منا . أنت لاتعرفه : لأن يطعن طاعن في الاسلام أهون عليه من أن يطعن في الرغيف الثانى ! فسحب بنان يده ، وهو يهمس في أذن أشعب :

— أو يريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فترة نبى ! ولحظهما الكندى وظن أنهما يتساران في أمر الخبز ويستصغران حجمه . فأمسك برغيف ورطله في يده وقال :

— يقولون إن خبزى صغير ! فمن الزانى ابن الزانية الذى يستطيع أكل رغيفين منه !

فبغت بنان ، وأراد أن يفتح فاه ، وإذا بالبواب قد فتح عليهم دخل

جار للكندى ، قرأ الجميع السلام وهم يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض
الكندى عليه الطعام ، فاستحيا أشعب من الرجل وهو جاره فى السكن ،
فما تمالك أن قال له :

— منبحان الله! لودتوت فأصبت معنا مما نأكل .

فتأدب الرجل وقال حياء :

— قد والله فعلت .

فأسرع الكندى يقول :

— ما بعد القسم بالله شىء .

فكفف الرجل بذلك كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه
فى مكانه لا يريم . ولومد الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر .
ورأى الرجل دقة موقفه فتحرك منصرفاً خجلاً . فزق له أشعب وقال له :

— أين تريد ؟

فقال الرجل

— إلى منزلى أتوضأ .

فقال له أشعب :

— ولماذا لا تتوضأ ها هنا . فإن الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ

نسيط ، وليس من الكندى حشمة ، ومنزله منزل إخوانه .

فدخل الرجل فتوضأ ، والكندى ينفخ من الغيظ ، ولحظه أشعب فقال له :

— هون عليك . إنما كل بغيتي أن أسخيك وأنقى عنك التبخيل
وسوء الظن .

فقال الكندى :

— فهمنا أن تدعو الناس إلى غداؤى لتسخّنى ، ولكن لا أفهم أن
تدعوهم ليخروا واعندى !

وعاد الرجل فجلس عن كشب وأخرج من جيبه رقعة قدمها إلى
الكندى قائلاً :

— جاءنى رقعتك اليوم وفيها أنك تزيد على أجر الدار خمستين ،
لأن ابن عمى ومعه ابن له قد نزلا على ضيفين !
فأجاب الكندى على الفور :

— نعم ، إذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك ،
وإن كان إطعام السكان فى الليلة الواحدة يحجر علينا الطمع فى ليال كثيرة .
فقال الرجل :

— ليس مقامهما عندنا إلا شهراً ونحوه .

فقال الكندى :

— إن دارك بثلاثين درهما وأتم ستة ، أى لكل رأس خمسة ، فأما
وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا
أربعين .

فقال الساكن متعجباً :

— وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل
الجبال ، إن ثقل مؤنثهما على أنا دونك . ماهو إذن عذرك لأعرفه ؟
فترك السكندى الأكل واتجه إلى ساكنه قائلاً :

— عذرى واضح كالنهار . والخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة .
وهي قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما في تنقيتها من شدة
المؤونة . ومن ذلك إن الأقدام إذا كثرت كثر المشى على ظهور السطوح
والصعود على الدرج فينقشر الجص وينكسر العتب ، وإذا كثر الدخول
والخروج والفتح والإغلاق وجذب الأقفال تهشمت الأبواب وتقلعت
الرزات . فساكن الدار هو المتمتع بها والمتنفع بمرافقها وهو الذي يبلى
جديتها ويذهب عمرها بسوء تديره ، وإنه ينسى أن المالك ما أسكن داره إلا
بعد أن كسحها ونظفها التحسن في عين المستأجر ، فإذا خرج هو ترك فيها
حزلة وخراباً لا تصلحه إلا النفقة الموجهة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترساً إلا
سرقه ولا سلباً إلا حملة ، وإذا أراد الدق في الهاون ترك الصخرة المجهولة
لذلك ودق على الأجزاء حيث جلس تهاونا وقسوة وغشا . هذا فضلاً عما
يحدثه من الشغب مع الجيران والتعرض لهم واصطياد طيورهم وتعريضنا
لشكايتهم . فإذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم ، وأن نطلب بضعة دراهم لإصلاح
الفساد المنتظر سمعنا عبارات الاحتجاج وطولبنا بإبداء الأعذار والأسباب .

وسكت الكندى فجأة ، فقد حانت منه التفاتة إلى الضيفين ، فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام وأمعناهما في محو أثر الخبز والسمك ، إلا « شبوطه » كان قد نجح في وضعهما بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها لئلا يهاو كبرها ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظن عند نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطايها ، فما كاد يحسر عن ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد أشعب عليها ، فلما رأى هذه اليد في السمكة رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف وأيقن بالشر وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث أشعب حتى قبض على قفا الشبوطة فانزع الجانبين جميعاً واكتسح ما على الوجهين فلما أكل أشعب جميع أطايها وبقي الكندى في النظارة ، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى أشعب يفرى الفرى ويلتهم التهاماً صاح به : حسبك لا يقتلك الطعام !

فأجاب أشعب وفمه ممتلئ :

— إذا كان الأجل موقوتاً ، فلا أن أموت شبعاً أحب إلى من أن أموت جوعاً !

وقط الكندى من الأكل مع هذين الرجلين ، فانصرف إلى الحديث مع جاره الساكن واتفق معه على الزيادة في الكراء كما طلب ، وشيعه إلى الباب ثم عاد إلى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شيء يؤكل . وبنان يتجشأ ويقول :

— لعن الله « القدرية » .. من كان يستطيع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام وقد كان في اللوح المحفوظ أني سأكله !
فكظم الكندي غيظه وقال في نفسه :

— تعال غداً فإن وجدت شيئاً فالعن « القدرية » والعن آباءهم وأمهاتهم !
وجلس الضيفان بعد أن غسلا أيديهما يتخللان من الطعام ، وهما على خير ما يكون الانسان راحة وهناء . وجعل الكندي ينظر إلى خوانه منتهك الحرمة ، عليه بقايا العظام والأشواك كأنها جثث القتلى بعد المعركة . فساورتهم الهموم وتحركت فيه غريزة البخل . وشعر بالكرب والغم . فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما يقول في نبرة المتوسل :

— أسألكم بالله الذي لاشيء أعظم منه ، أنا الساعة أيسر وأغنى ،
أو قبل أن تأكلوا طعامي ؟
فقالا معاً :

— ما نشك أنك حين كنت والطعام في ملكك كنت أغنى وأيسر
فقال :

— فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟

قالا : بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر .

فلم يحتمل الكارثة وصاح في نبرة ألم وندم وغضب :

— آه ! من ذا الذي يلومني إذن على ترك دعوة قوم قربوني من الفقر

وباعدوني من الغنى ! وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب !
فرأى أشعب الخطر والضرر كله في ترك هذا الرجل على هذه العقيدة
فأسرع يقول له :

— ولكن قد فاتك أمر : إنك الليلة إنما تنفق اليسير لتجني الكثير .
ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المؤونة إلى جانب ما سوف تتقاضاه
من هذا الساكن الجديد كراء لدارك الحالية ! أما كنت تقول الساعة إن
الغرم بالغنم ! .. فأنت والله في آخر الأمر الغانم الرابع !
فتفكر الكندي لحظة وبدا عليه الاقتناع فاطمأن في الحال قلبه وانفجرت
أساريره وضحك للمرة الأولى ضحكة الارتياح .. وقال :

— إذن فادع لي !

فرفع أشعب يديه إلى السماء وقال :

— من الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة الصدر وكثرة
الأكل وفقاء المعدة ، وأمتك بضرس طحون ومعدة هضوم ، مع السعة
والدعة والأمن والعافية ! هذه دعوة مغفول عنها !

فصل الثالث

جعل أشعب وبنان يدلّان الكندى ويفكهانه ولم يشكّا أنه
سيدعو إليهما تلك الليلة بنبيذ فيملآن بيته إلى الفجر نزهة ونشوة ،
ولكن الكندى جعل يتغافل ويتناوم . فلمح له أشعب بما يصبو إليه قائلاً :
— إن المجاس والله .. ليس فيه غناء ولا نبيذ فهو كالبيت الحرب !
فلم يسمع لكلامه صدى . وطال تغافل الكندى فلم يجد أشعب بداً
من التصريح . فأقبل عليه يقول :

— إجماعاً مرة ليس لها أخت . ودعوة لن تعود إلى مثلاً . واضحك
واطرب ليلة في العمر بقليل من نبيذ !

ولما بلغ منه ومنهما المجهود ورأى الكندى أنهما مقيمان مصرّان ،
غير منصرفين قبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ، قام فأحضر لهما قربة نبيذ
مع أكواب ووضعها بين يدي أشعب وقال له :
— الآن غنّ واطربني والأمر لله !

فانقضّ أشعب وبنان على الكؤوس . وشرب بنان شرب العطشان
الصادى . وأفرغ أشعب كأسه في جوفه وهو يرفع عقيرته منشداً :
إمدح الكأس ومن أبدعها واهج قوماً قتلونا بالعطش
إنما الكأس ربيع باكر فاذا مالم نذقها لم نعش

فطرب الكندي للصوت ولكنه قال كالمخاطب نفسه :
— والله ما قتلوك بالعطش . ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم بالشره .

وملاً كأسه وقال : غنَّ أيها المغني !

فلأ أشعب كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلن بقول اللأثم اللاحي واشرب على الورد من مشجولة الراح
كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها أغناك لألاؤها عن كل مصباح
فصاح الكندي من الطرب صيحة مدوية دعت الضيفين . وأفرغ
في حلقه كأساً أخرى وهو يقول :

أسقني حتى تراني مائلاً وترى عمران ديني قد خرب

وسكر الكندي . وأمعن أشعب في الغناء :

مازلت آخذ روح الدين من لطف وأستبيح دماً من غير مجروح
حتى انثيت ولي روحان في جسدي والدين مطرح جسم بلا روح
فطرب الكندي ولم يدر ما يصنع من شدة الطرب ، فشق قميصه
وقال لأشعب : -- إفعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسي . .

فنظر إليه أشعب دهشاً . . . فصاح الكندي :

— ويلك ، شق أيضاً أنت قميصك !

فقال أشعب جزعاً :

— أصلحك الله ! أتريد أن أشقه وليس لي غيره !

فقال الكندى :

— شقه وأنا أ كسوك غداً .

فأجاب أشعب :

— فأنا إذن أشقه غداً .

فقال الكندى :

— وأنا ماذا أصنع بشقتك له غداً ؟

فقال أشعب :

— وأنا ماذا أرجو من شقه الساعة ؟

ولبثا في ذلك وقتاً يتساومان وبنان ينظر إليهما ويعجب . وأخيراً

صاح في الكندى : — ما كل هذا ؟ إني لم أسمع قط بامرئ نسان يقايس ويحاور

وينظر في الوقت الذي إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب ! إذا

كنت قد طربت الآن حقاً . فاكسه الآن القميص !

وهزت الكندى نشوة الحمر ونخوة الوهم ، في غفلة من غريزته النائمة

فقام يتعثر إلى قميص جديد عنده فأتى به وكساه أشعب . فلما صار القميص

على أشعب ، خاف البدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحين

الفرص وأوهم الكندى أنه ذاهب لقضاء حاجة على أن يعود ، ثم مضى توا

إلى منزله بالقميص فجعله من فوره « برشكانا » لامرأته .

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندى وبنان ، وهما مبرحا

في انتظار عودة المطرب . فانصرح بنان على الأرض جاعلاً فراشه البساط
ومرفقه يده ، ولم يكن في المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد الكندي
إكرام ضيفه فأخذ المخدة فرمى بها إلى بنان فأبأها وردّها عليه . وأبى
الكندي ، وأبى هو . ولبثا هكذا يتطارحان التأدب ويتقارضان الجمالة
في لسان متاعثم وجذع متمايل . إلى أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :
— سبحان الله ! يكون أن تتوسد مرفقك وعندى فضل مخدة !

فأذعن بنان وأخذها فوضعهما تحت خده . ومر بعض الليل دون أن
يغرق بنان في النوم لابس الفراش ورداءة الموضع . وظن الكندي أن
الضيف قد نام . فجاء قليلاً قليلاً حتى سلّ المخدة من تحت رأسه . فلما رآه
بنان قد مضى بها ضحك وقال : قد كنت عن هذا غنياً !

فارتبك الكندي وقال :

— إنما جئت لأسوى رأسك .

فقال بنان : إني لم أكك حتى وليت بالمخدة .

فأجاب الكندي :

— كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة في يدي ، نسيت ما جئت

له ، والنبيذ ما علمت والله يذهب بالحفظ أجمع !

وأراد الكندي أن يرد عليه المخدة . فأبى بنان ، فألح وألح . وعادت
المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد . فلم يخلصهما منها إلا غلبة النوم

الثقل في الهزيع الأخير من الليل . فانظر حاكأتهما حبران والمخدة عن
كشب منهما منظرحة منفردة وحيدة .

وطلع النهار وأحس بنان ضرب الشمس في وجهه قمض ونظر حوله
مذعوراً ، فأدرك ما كان فيه . ورأى الكندى ممدداً يغط على مقربة منه
فأسرع إلى نعله فحمله في يديه وانطلق إلى الطريق قبل أن يستيقظ ...
وعلا النهار ... وأقبل بعض أهل البيت ينقرون على باب الحجرة
فصحا الكندى . وفرك عينيه وألقى نظرة على المسكان فهم منها كل شيء ،
فبحث عن الضيفين فلم يجدهما فصاح صيحة منكورة ووضع نعله في قدميه
وانطلق إلى مسكن أشعب فذق عليه الباب ، فخرج له فقال له :

— أين الساكن ؟

— لقد تركته بين يديك فأنت الذي تسأل عنه .

— وأين القميص ؟

— إنك قد وهبتني إياه .

فقال الكندى في رفق مصطنع :

— أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعته وصدقته وطلاقه

لا يجوز . وبعد فإني أكره أن لا يكون لي حمد ولا شكر ، وأن يوجه

الناس هذا مني على السكر فرد على القميص حتى أهبطه لك صاحياً عن

طيب نفس . فاني لأحب أن يذهب شيء من مالي باطلا .
فلم يتحرك أشعب لهذا القول . وعلم الكندي أن مغنيه ونديمه
ومستأجره لا تنظلي عليه هذه الحجج . فأقبل عليه يقول متلفظاً :
— يا أشعب ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء
فرد القميص عافاك الله !

فقال أشعب مبتسماً : إني والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبي
إلى الأرض حتى جيئته لامرأى ، وقد زدت في الكمين وحذفت المقادير
فان أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذ .

فقال الكندي للفور :

— نعم آخذه . لأنه يصلح لامرأى كما يصلح لامرأتك .

ومد ذراعه . فقال أشعب : إنه عند الصباغ .

فقال الكندي : هاته .

— ليس أنا أسلمته إليه .

فعلم الكندي أنه قد وقع ، وأن لاحيلة له ولا منقذ ولا أمل ولا رجاء
فقال في زفرة حارة من كبد محروق :

— بأبي وأمي ، صدق رسول الله حيث يقول : جمع الشر كله في

بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه : السكر !

الفصل الرابع

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسول يحمل رقعة من القينة الجميلة تستنجزه فيها الوعد ، وتخبره أنها راحلة في الغد إلى شأن من شؤونها في الكوفة ، وتعرض له في ختامها بجفاء قلبه وزيف وده وتبدي له ربيتها فيما يظهره لها من الوجد . فلم يدر أشعب ما يفعل ولا كيف يجيب . فأمسك آخر الأمر بالرقعة وكتب في ذيلها :

أنا والله أهـواك ولكن ليس لى نفقة

فأما كنت تهوينى فقد حلت لى الصدقة

فذهب الرسول بهذا الرد إلى الجارية ، وخرج أشعب إلى الطريق يستنشق الهواء ويفكر في أمر العشاء ، وإذا العشيقة قد أقبلت بعد قليل ، فما كاد يراها حتى وقف في مكانه حائرًا لا حراك به .

فسلمت عليه وقالت :

— لا تخش شيئاً . إنما أتيت لأودعك قبل رحيلي غداً . والله لولا

اشتغالى اليوم بإعداد حوائجى ومتاعى وإخلاء دارى لو افيتك بنا تشهيت على من تلك الأطعمة التى يحبها قلبك وتهيم بها معدتك !

فقال لها : — وماذا أنت صانعة فى الكوفة ؟ أذهبة للغناء ؟

فقلت : نعم ، إنك فيما أظن قد رضىتنى حذاقة به ومعرفة .
فقال : نعم ، ولكن اختلفى أيضاً إلى مجمع مولى الزبير فانه حسن
الغناء ، فاعلقى من غنائه أصواتاً عشرة . فانك والله خليقة أن تفتنى الناصك
وتخرجه من صومعته ساجداً لك . فقلت :

— كنت أود أن أتزود منك الليلة بصوت أو صوتين ..
فسقط في يد أشعب . وارتبك واشتدت حيرته فلم ير ما يصنع .
وتفكر لحظة ، ثم قال في نفسه : — مالى إلا منزل بنان ، ونظر إليها ثم قال :
— اتبعينى ! وسار وهو يقلب الأمر على وجوهه ، إنه لا يجهل أن
وقوع طفيل على طفيل لا يجوز ، ولكن وجود الحسناء معه فيه العذرو الحجة ،
وقد يرق بنان لجمالها فيتسع صدره وتنسبط يده ويوفي الضيافة حتها . واقتربا
من الباب . فاستوقفها ، ثم ذهب فنادى رفيقه فخرج إليه فقال همساً :
— أكمل الخير ! معى وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما فيها ، وقد
حصل على ضيقة وعسر وإملاق .

فقال بنان على الفور :

— قد شكوت أنت والله مما كدت أباديك أنا لشكواه !
غير أنه نظر إلى ناحية المرأة ورأى رشاقة قدھا فقال :
— إئت بها والله المستعان !

فدخلت القينة خلف أشعب ، واستقبلها بنان بالتحية ، فسفرت فاذا

هو يرى وجهاً رقيقاً كأنه كوكب ، به عينان مملوءتان سحراً وأنف كأنه قصبية
 در . وفم كأنه جرح يقطر دماً ، وردت عليه التحية بلسان فصيح ، فحار
 بصره وذهب لبه وجل خطبه وتلجلج لسانه وتغللت وجلاه ، ثم تاب إليه
 عقله فدعاها للجلوس في صدر المكان وسألها قائلاً :

— أيتها الجارية ! إنسية أنت أم جنية ، سماءية أم أرضية !

فضحكت القينة وقالت : بل إنسية أرضية واسمى رشاً .

فسر أشعب واطمأن قلبه لما رأى من افتتان بنان ، وأنشد بصوته
 الرخيم وصناعته البارعة :

رشا لولا ملاحظته خلت الدنيا من الفتن

كل يوم يسترق له حسنه عبداً بلا ثمن

وأشار بأصبعه إلى بنان ، فقال بنان :

— إى والله عبد بلا ثمن ، لو سمحت بذلك سيدتى ! فابتسمت له

الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال :

— إنك والله تختلسين الأرواح بحلاوة ابتسامتك وتذهلين الأبواب

ببراعة منطقك ، فكيف لو كنت تحيدين الغناء ؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر ، ثم انطلقت تغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبداً ليست بذت قروح

أبى الناس كل الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح

فطرب أشعب . وقام بنان من فوره مجلس بين يدى الجارية وقال :
— كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق ، لو كانت الدنيا لى كلها
صرراً فى كى لقطعنها لك ، فأما إذ لم يكن لى من ذلك شىء ، فاللهم اجعل
كل حسنة لى لك ، وكل سيئة عليك على .

فابتسمت رشا وقالت :

— جزاك الله خيراً . فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قت به لنا .

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال :

— كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق إن كان وهب لك شيئاً
أو حمل عنك وزراً . فهو ماله حسنة يهبها لك ، ولا عليك سيئة يحملها
عنك . فلاى شىء تحمدينه وتشكرينه ؟

فضحكت وضحك بنان . . . وأمسك بنان بيدها فلتها وقال :

— بحق عندك .

— ماذا ؟

— تزيدى فى السماع .

فنظرت إليه وقالت : — وأنت ، كيف علمك بالغناء ؟

فقال مرتبكا : — علم لا أحمده .

ف قالت : — فعلى م إذن أنفخ بغير نار ! ما منعك من معرفته ؟

فتدخل أشعب قائلاً : منعه من معرفته أن له صوتاً أقبح من وجهى !

فنظرت القينة إلى بنان وقالت باسمه :

— لن أردك مع ذلك خائباً أزيدك في السماع ! وانطلقت تغني :

أنا التي لم ير مثلي بشر كلامي اللؤلؤ حين ينتشر

أسحر من شئت ولست أسحر إن سمع الناس كلامي كفروا

فاستخف أشعب الطرب . ولم يدر ما يصنع . فتهض في الحال ونزع

عمامته عن رأسه وألقى بها من النافذة . فصاح به بنان :

— ويلك ، ما فعلت بعمامتك ؟

فقال أشعب :

— تصدقت بها على الشيطان الذي أجرى هذا الكلام وهذا الغناء

على لسانها !

فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضاً ورمى بها من النافذة قائلاً :

— أتسبقي أنت إلى بر الشيطان !

وضحكت الجارية . وضحك الجميع . وخرج أشعب إلى الطريق يأتي

بعمامته . وخرج بنان خلفه يفعل مثله ، فما كادا يتفردان حتى همس

أشعب في أذن صاحبه :

— ويحك ! متى الطعام والشراب ؟ هذا والله لا يليق .

فأخرج بنان من ثيابه منديلاً نفيساً يضمن به ويحرص عليه ، وقال :

— لا أملك والله غير هذا المنديل . فاخططه أشعب من يده قائلاً :

-- هو البغية ، فقال بنان : خذه لا بارك الله لك فيه !
وجرى أشعب به تواءاً إلى السوق .

عاد أشعب مع المساء ، وقد باع المنديل بدينار ، وأشتري لحماً وخبزاً
ونبيذاً ، ودخل على صاحبيه بنان والجارية ، فإذا هما يتساقطان حديثاً كأنه
قطع الروض المطور ، وإذا بنان يقول لها في شبه همس :

أترى الزمان يسرنا بتلاقٍ ويضم مشتاقاً إلى مشتاقٍ
فتجيبه هي بصوت خفي وترجيع شجي :

ما للزمان يقال فيه وإنا أنت الزمان فسرنا بتلاقٍ
فوقف أشعب على رأسيهما قائلاً : ما شاء الله ! ما شاء الله !
فانتبها مذعورين ، والتفت بنان إلى رفيقه قائلاً : ما صنعت ؟
فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب ، وأخبره بما فعل ، فقال
له بنان :

-- كيف يصلح طعام وشراب وجلس مع وجه نظيف بلا نقل ولا
ريحان ولا طيب ؟ إذ هب فأكل الخبز !
نخرج أشعب يكمل الخبز وهو يعدوا عدواً حتى لا تطول له غيبة .

وأقبل أشعب بالنقل والريحان والطيب وهو يلهث . وكان ظلام

الليل قد هبط . فألنى باب الدار مفتوحاً كهده به عند خروجه ، فدخل .
وإذا هو لا يرى لصاحبيه ولا لشيء مما كان قد أتى به أثراً . فسقط في
يده . وبقي متاهلاً حائراً يرجم الظنون ويحيل الفكر سائر وقته ، حتى
مضى من الليل جزء ، ونفذ صبره ، فقال فى نفسه :

— أفلا أدور فى البيت لعل البحث يوقفنى على أثر ؟

ونفض يجوس خلال الدار ، وإذا هو يقف على باب سرداب ، وإذا
صاحباه قد هبطا فيه وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه ، فأكلا وشربا
وتنعموا . فلما أيقن أشعب ذلك دلى رأسه ثم نادى زميله :

— ويلك يا بنان !

فلم يجبه أحد . فرفع صوته ونادى ثلاثاً . فاجابه آخر الأمر صوت
بنان من أعماق السرداب :

وأُمسيت فى ليلين للشعر والدجا وشمسين من كأس ووجه حبيب
ثم سكت الصوت . وأراد أشعب أن يستجلب كلام صاحبيه ،
فلم يجيباه ..

فبات وحده ليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها طولا وغماً ، وطلع
النهار ، فخرج إليه بنان ، فما كاد يراه حتى وثب إليه صائحاً :

— أهذا يصبح يا بنان ؟

وجعل يؤنبه ، فقال له بنان :

— يا صفيق الوجه ، منزلى ومنديلى وطعامى وشرابى ، فما شأنك

فى الوسط !

فبهت أشعب لحظة ، ورأى الجواب مفحماً فقال « متمحكا » :

— حق القيادة والفضول ، والله لا غير ؟

وظهرت الجارية فى تلك اللحظة ، فولى بنان وجهه إليها وقال لها :

— بحياتى إلا أعطيتيه حق قيادته وفضوله .

فقالت باسمه : أما حق قيادته فعرك أذنه . وأما حق فضوله فصنع قنأه .

فنظر أشعب إليها فاغراً فاه . واستقبله بنان على الفور فعرك أذنه

وصفغه ، فالتفت أشعب قائلاً : ما هذا ؟

فأجاب بنان : الحكم .

فوضع أشعب يده على مكان الصفعة ونظر إلى بنان شزراً :

— الحكم ؟ !

فقال بنان باسمه :

— نعم ، جرى الحكم عليك بما جرى لك من العذل والاستحقاق .

فصل الخامس

مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسي شكل الخبز وطعم اللحم . فخرج من الجوع يهيم في الأسواق . فلم يظفر بشيء . ولم يفتح الله عليه بمغظر أكل ولا آكلين . ولم يبلغ أذنيه حتى مجرد ذكر الطعام ، سوى قول جماعة مروا به في الطريق يتحدثون في أمر المسيح الدجال . قتال أحدهم :

— إن الدجال رجل يخرج في سنة قحط معه « جرادق » أصهباني ، وملح « دراني » و « انجذان » سرخسي ! فتملظ أشعب وصاح فيهم : — هذا عافاكم الله رجل يستحق أن يستمع له ويطاع ! ثم سار في طريقه على غير هدى ، حتى قاده قدماه إلى بيت صديقه بنان ، فوقف تحت نافذته وأنشد :

أنا في حال تعالى الله ربي أي حال
ليس لي شيء إذا قيل لمن ذا قلت ذالي
ولقد أفلست حتى محت الشمس خيالي
ولقد أفلست حتى حل أكلتي لعيالي

فأطل عليه بنان من النافذة وقال له : أدخل !

فدخل أشعب مسرعاً يقول : حفظك الله وأبقاك !
 وجعل يتنسم رائحة قنار أو طعام في البيت فبادره بنان بقوله :
 — إني لم أدعك من أجل ذلك ! فأنا حالي كحالك إنما قد خطر لي
 خاطر لعل فيه النجاة لي ولك .
 — ماهو أصلحك الله !

— ماقولك لو رحلنا معاً اليوم إلى مكة فقد نجد فيها رزقاً . وقديماً
 قالوا في السفر سبع فوائد ، ونحن والله لا نبغى غير فائدة واحدة هي :
 الطعام ومعاشرة الكرام .
 — وكيف لنا بالسفر ؟

— اليوم ترحل قافلة إلى مكة ، لي فيها من يحملني ويحملك بغير
 نفقة . . . فهل بنا !

مضى أشعب وبنان من ساعتها إلى القافلة . وكان اليوم يوم الجمعة .
 فبينما هما في الطريق مرا بمسجد قد ازدحمت فيه الناس تصلي الجمعة . فتمهل
 أشعب وحدثته نفسه بالصلاة . فأخبر زميله ، فاتهره ، وأثناه عن رغبته
 فأصر أشعب قائلاً :

— أريد أن أستعين ببركات الصلاة على وعشاء القفلة .
 — إذهب أنت وحدك ، ولئن فاتتك القافلة فليس على لوم .

— إنما هي ركعة أستودع بها المدينة.

ومشى بنان في طريقه . وعرج أشعب على المسجد ودخل . وكانت الصلاة قد بدئت . ووجد الصف تاماً . فلم يستطع أن يقوم وحده ، ف جذب ثوب شيخ أمامه في الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب الفرج تقدم فقام في موضع الشيخ وترك الشيخ قائماً خلفه ينظر في قفاه ويدعو الله عليه . وكان الإمام من سوء الطالع رجلاً مبطاً ثقیلاً الحركات ، فجعل يقرأ فاتحة الكتاب بقراءة « حمزة » مدّة وهمزة ، ثم انحنى للركوع بنوع من الخشوع لم يمهده أشعب من قبل ، ثم رفع رأسه ويده وقال : « سمع الله لمن حمده » وقام حتى ماشك أشعب أنه قد نام ، وحل بأشعب الغم وأيقن بفوت القافلة ، وضرب الإمام يميناه وأكب لجبينه ثم انكب لوجهه ، وأشعب يتقلّى على نار الصبر ويتقلب على جمر الغيظ ، وليس له إلا السكوت والاذعان ، أو الكلام والقبر لما يعلم من خشونة القوم في ذلك المقام لو أنه قطع الصلاة قبل ختامها . فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل والرحيل . ثم راجعه الأمل فرفع رأسه ينتهز فرصة فلم ير بين الصفوف فرجة . فعاد إلى السجود يائساً ، حتى كبر الامام للعود وقام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة وسورة القارعة قراءة استوفي بها عمر الساعة ، وكاد يستنزف أرواح المقوم . فلما فرغ من ركعته وأقبل على التشهد ومال إلى التحية ، وقال أشعب في نفسه « لقد

سهل الله الخرج وقرب الفرج « إذا رجل قد قام من بين الناس صائحا :
-- أيها الناس من كان منكم يحب النبي والصحابة فليعزني سمعه ساعة
فلم ير أشعب مناصا من أن يلزم مكانه كما فعل جميع الناس .
وصاح الرجل :

— أيها الناس ! خليك بي أن لا أقول غير الحق ولا أشهد إلا
بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم ، ولكني لا أؤديها حتى يطهر الله
هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوته .

فربط هذا القول أشعب بالقيود وشده بالحبال ، فلو تحرك بعدئذ
وقام من بين الناس لكان هو ذلك النذل الجاحد في نظر الجميع ، ومضى
الرجل يقول : رأيته في المنام صلى الله عليه وسلم كالشمس تحت الغمام
والبدر ليل تمام ، يسير والنجوم تتبعه ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ،
ولقد علمني دعاء أوصاني أن أعلمه أمته ، فكتبتنه على هذه الأوراق بمسك
وزعفران فمن دفع لي ثمن القرطاس أعطيته .

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيرته ، ورأى أشعب ذلك فتعجب
من حذق الرجل واحتياله لرزقه ، وجعل يتأمل فصاحته في وقاحته ، وربطه
الناس بهذه الحيلة البارة ، وأخذ المالك الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة !

وخرج أشعب من المسجد وهو يفكر في الأمر ويقول في نفسه :
« ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بثقل هذه الخيل ؟ بدلا من انتظار

الولائم والأعراس » ، وسار في طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه . فعاد خائباً في غم وجوع لا يدرى أين يذهب ولا كيف يجد غذاءه ، وإذا هو برجل من ريف المدينة يسوق حماره وعلى وجهه أمارات السذاجة ، فقال في نفسه : ظفرنا والله بصيد سمين .

وأقبل على الريفي صائحاً : حياك الله يا أبا زيد ! من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ومتى وافيت ؟ هلم إلى بيتي !

فوقف الرجل دهشاً يقول : لست بأبي زيد ، ولكني أبو عبيد . فقال أشعب في صوت المستدرك : نعم لعن الله الشيطان وأبعد النسيان ، أنسانيك والله طول العهد ، كيف حال أبيك ؟ فقال الرجل : لقد نبت الربيع على قبره .

فصاح أشعب : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

ومد يده إلى صدره يريد أن يمزق قميصه من الجزع ، فقبض الريفي على يده قائلاً : نشدتك الله لا تمزقه !

فاظهر أشعب التجلد والطاعة ، وأبقى على ثوبه ثم جذب يد الريفي قائلاً :

— هلم إلى بيتي كي تتغدى ، أو إلى السوق لنشتري شواء ، نعم ... السوق أقرب وطعامه أشهى .

ومشى به إلى حانوت شواء تنصاعد رائحة دخانه شهية إلى الأنوف

فتحرك أفواه البطون ، وقال أشعب لصاحب الحانوت : إفرز لأبي زيد
من هذا الشواء !

ونظر إلى صواني معروضة وقال : ثم زن له من تلك الحلوى ، واختار
له من تلك الأطباق . وأنضد عليها أوراق الرقاق ورش عليها شيئاً من
السكر وماء الورد ليأكله أبو زيد هنيئاً !

فانحنى الشواء بساطوره على ذلك اللحم الطرى . وقطع وقدم إلى
أشعب والريفي . فجلسا وأكلا حتى استوفيا . فقال أشعب لصاحب الحلوى :
— زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى في الخلق ،
وليكن رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤى الدهن ، يذوب كالصمغ قبل
المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئاً

فوزن صاحب الحلوى لها . وقعد الرجلان وشمرا حتى أستوفيا
فقال أشعب للريفي : يا أبا زيد ، ما أخرجنا إلى ماء مشعشع بالتلح يبرد
جوفنا بعد هذه الأكلة النظيفة !
فقال الريفي : صدقت .

فقام أشعب وهو يقول له : إجلس يا أبا زيد ولا تبرح حتى نأتيك
بسقاء ! وخرج أشعب فائزاً بالسلامة ومعدة مملوءة .

ومضى النهار ، وعلم الريفي من إبطاء أشعب أنه لن يعود ونفذ
صبره من طول الانتظار ، فقام إلى حمارة ، فلمحه صاحب الحانوت فتعلق

بشوبه وقال له : أين ثمن ما أكلت ؟
فقال الريفى : لقد أكلته ضعيفاً .

فلكمه صاحب الحانوت لكمة : وثنى عليها بلطمة وقال له :

— ضعيفاً ؟ متى كمنادعوناك ؟ هاك نفخذ ...

ونزل عليه الشواء لكما ولطما وهو يقول :

— زن يا أبا الوقاحة عشرين !

وجعل الريفى يصرخ ويلعن ويصيح : لعن الله ذلك الشيخ المحتال ،

لقد قلت له أما أبو عبيد ، فيقول لى أنت أبو زيد !

لفضل السّائس

مرت الأيام وأشعب لا يسمع خبراً عن بنان . ولا يجد سبيلاً إلى
لقمة ، فقد عرفته الناس في المدينة فلم تعد تنفع الحيلة ولا الوسيلة . ولم تعد
تقع عينه على خوان ولا على قوم أمام طعام . كأنما الناس من لؤمهم قد
أصبحوا يأكلون في بطون الأرض أو أجواز السماء . ومشي اشعب غداة
ذلك اليوم لا ينظر شيئاً ولا يفكر في شيء ، فدهم في جانب من جوانب
الطريق جماعة يتغدون وهم غرباء لم يعرفوه . فقال لهم :

— سلام عليكم معشر اللثام !

فرفعوا ابصارهم إليه قائلين : لا والله بل كرام !

فتنى أرجله في الحال وجلس بينهم وهو يقول :

— اللهم اجلهم من الصادقين واجعلني من الكاذبين !

ثم مد يده في القفصة التي بين أيديهم وهو يقول : ماذا تأكلون ؟

فأرادوا أن يوقفوا تهجمه ، فقالوا في فتور : نأكل سما !

فحشاه وازدرد وهو يقول :

— الحياة بعدكم حرام !

وجعل يجول في القفصة كما يجول الفارس في الميدان . فلما رأوه قد

أغار على أكلهم ، وكاد يجرهم زادهم في غير حشمة ولا حياء . نظر بعضهم إلى بعض ثم التفتوا إليه قائلين :

— أيها الرجل ! هل عرفت منا أحداً ؟ فأشار أشعب بأصبعه إلى الطعام وقال : عرفت هذا .

فسيكتوا عنه ، وقد استظرفوه ، وتبادلوا الحديث ، فعرف منهم أشعب ، أنهم من أهل مكة ، وقد جاءوا في القافلة الأخيرة ، وقال أحدهم إن معه رقعة من رجل اسمه بنان في مكة لرجل اسمه أشعب في المدينة ، فاهتز أشعب سرورا وكشف لهم عن حقيقته . وتسلم الرقعة . وقرأها فعلم منها أن صاحبه قد استقر في أحسن حال . وقد بارحته أيام العسر والضيق . وله حرفة شريفة يدر منها المال ، وهو يسأله أن يأتي إليه مع أول قافلة متهيئة للرحيل ، كي يعاونه في ذلك العمل ويشاركه في ذلك الكسب الحلال . . .

قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة إلى مكة . ولم يكن معه مال ولا أحمال ، ولم يدر كيف غلب عن فطنة بنان ، وقد أصبح حسن الحال كما قال ، أن يرسل إليه مع الرقعة بما يقيم أوده حتى الوصول . لعله خشى أن يأخذ أشعب المال ويكسل عن تجشم الرحيل . ولم يعلم مثل أشعب الوسيلة ، فقد سار مع القافلة على قدميه يغنيهم ويضحكهم . وقد

كان سيره أول الأمر إلى جانب فاقه عليها شيخ وشاب . فلاحظ أن الشاب كثير البكاء . فاستعلم . فاخبروه أنه عاشق لأبنة عمه وقد فرقت بينهما الأحداث . وأن الشاب اشترك مع ذلك الشيخ في السفر والمؤونة وكانا على ضيقة وعسر . فجعلاهما في كل يوم قرصا من الخبز . وكان الشيخ متخلع الأضراس بطيء الأكل ، فكان الشاب يطش بالقرص ثم يتعديشتمكي العشق ، ويتضور الشيخ جوعا ، وكان اسم ذلك الشاب جعفرا . فجعل أشعب يغني فيهما قائلا :

لقد رايتني من جعفر أن جعفرا

يطيش بقرص الشيخ في آخر الليل

فقلت له لومسك الحب لم تبت

سمينا وأنساك الهوى شدة الأكل

فضحكت القافلة وأنتت إلى أشعب . وحمله معه رجل من التجار

يسافر وحده على جمل ، فلبث أشعب معه طول الطريق . ينزلان

ويقومان . والرجل في كل يوم يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع

شيئا . فقال له الرجل ذات يوم : قم اليوم فاطبخ .

فقال اشعب : لا أحسن ذلك .

فطبخ الرجل . ثم قال لأشعب : قم فأرد .

فقال اشعب : والله كسلان .

فترد الرجل ، ثم قال : قم فاغرف .
فقال اشعب : أخشى أن ينقلب على ثيابي .
فغرف الرجل ثم قال لأشعب . قم الآن فكل .
فنهض اشعب مسرعا قائلا : قد والله استحيت من كثرة خلافي
عليك ! وتقدم إلى الأكل فقام فيه مقام رجلين .

* * *

وصل أشعب إلى مكة وسأل عن بنان ، ف قيل له إنه كان قد استأجر
دارا في مكة يجمع فيها بين الرجال والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب .
فشكاه الناس إلى والى مكة فنفاه إلى عرفات ، فمضى أشعب من ساعته
إلى عرفات ، فوجد صاحبه قد أقام فيها منزلا ورأى أمام المنزل قطيعا من
الخير مرتبطة ، فما رآه بنان داحلا عليه حتى فتح له ذراعيه وتعانقا ،
وأخبره بما هو فيه من الرخاء واستواء الحال وأنه لا ينقصه لتمام سرور
من يجيئونه غير الغناء والطرب ، وهذا لا يقوم به غير أشعب ، ولهذا
أرسل إليه ، فتأمل أشعب المكان وقال لصديقه : أهذا هو العمل الشريف
والكسب الحلال ! فانتهره بنان وقال له : أليس هذا أشرف من أن
ندعو أنفسنا إلى موائد الغير وشرابهم . إنما ندعو الآن الناس إلى شرابنا
نحن وموائدنا وغنائنا ، فماذا في ذلك ؟
فقال له أشعب :

— أما نفاك والى مكة ؟ فكيف يخيئك الناس ها هنا ؟

فاجاب أشعب :

— الأمر هين . فقد أرسلت إلى الناس أقول « ما ينعمكم من أن

تعاودوا ما كنتم فيه ؟ فقالوا وأين بك وأنت فى عرفات » فقلت لهم :
« حمار بدرهم وقد صرتم على الأثر فضلاً عن النزهة » . ففعلوا . وما زالوا
يفعلون ، وتلك حميرهم بالباب !

استطاب أشعب تلك الحياة الجديدة . فقد عرفت يده ثقل الدراهم ،
وطبئته الشبع ، وظهره الكساء ، وأصبح الشراب من لزوم عمله . لا يفتق
منه إلا إليه . وهو يعد شريك بنان فى كل ما ملك حتى فى ذلك الخادم
الذى يقوم بخدمتهما .

ولم يدر أشعب أين ينفق ماله ، ولم يشأ أن يركب حماراً بالكراء
يحمله فى غدواته وروحاته من مكة إلى عرفات ، ومن عرفات إلى مكة .
فذهب إلى نخاس بسوق الدواب فقال له :

— أطلب ما شئت من الثمن ، واعطنى حماراً يليق بى والىق به ؟

فقال النخاس وهو ينظر إلى بذخ أشعب .

— تبغى حماراً عظيم الهيئة سريع الخطوة ...

فقال أشعب :

— أبغى حمّارا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثّر الزحام ترفق ، إن أفلت علفه صبر ، وإن أكرته شكر ، وإذا ركبته هام ، وإن ركبه غيرى نام .

فنظر إليه النخاس محمّقا مشدوها ثم قال له :

— يا عبد الله ، أصبر ، فإن مسح الله قاضى مكة حمّارا أصبت حاجتك إن شاء الله !

ثم أراه بعد ذلك حمّاراً حسن المنظر أنيق المظهر ليس به من الخصال ما طلب أشعب ، ولكن فيه من الامارات ما يغرى ، فركبه أشعب من ساعته وأنقذ الرجل الثمن . ومشى به يتبخر ، مشية لم يمرّ بها من قبل لا على قدميه ولا على ظهر دابة . وعاد به إلى عرفات . فلم يخالطه مع الحمير الواقعة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيماً لشأنه . فربطه وحده تحت نافذة بنان . ودخل فألقى بمجلس الشراب قائماً ، والرجال والنساء مختلطين . وبنان ليأسه من غيبة أشعب فى السوق ، ولما صور له السكر من الوهم والخيلاء قد حل محل أشعب فى الغناء . وإذا القوم يضحجون ، يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد أن يسكت ، وما كادوا يرون أشعب داخل حتى هلّوا فرحين ، وأقبل عليه الرجال وأقبلت النساء ، وارتفعت الأصوات تقول له :

— أسكت لنا صاحبك !

فأراد أن يسكته فلم يستطع ، وأقبل الناس على بنان يقولون له :
-- لقد حضر أشعب ، فمن أحسن غذاء ؟ أنت أو أشعب ؟
فقال بنان :

— أنا شيء ، وأشعب شيء ، أنا أغني بدرهم ، وأسكت بدينار ،
أما أشعب فيغني بدينار ويسكت بدرهم ، فسكوتى إذن أغلى من
مسكوت أشعب ! فوالله ما أسكت حتى تدفعوا الثمن !
فصاح الناس :
— ندفع والله !

وصاحت النساء تطلب إلى أشعب أن يغني فقال لهم :
— بشئنه كما قضى زميلي .

فقلن :

— ندفع والله !

فسكت بنان . ونهق الحمار تحت النافذة . فقال أشعب :

— هذا والله هو وحده الذى طرب لغناء بنان !

ثم شرب رطلين ورفع عقيرته يغني بصوته الحسن ويشير إلى بنان :

ومغن إن تغنى أورث الندمانها

أحسن الأقوام حالا فيه من كان أصما

فضحك المجلس وطرب وانهاالت على أشعب آيات الحمد والاعجاب ..

مرت الأيام وشاعت في مكة أخبار ذلك المنزل في عرفات . وأعاد أهل مكة الشكاية إلى الوالى أن هذين القوادين لا يفتران عن هذا الفعل ، حتى فسدت أحداث مكة . فأرسل الوالى إلى بنان وأشعب . فأحضروهما وقد قاما عن العشاء وامتلأ بطناهما بألوان الطعام . وقد شرب ليلتئذ أشعب حتى جهل يقول لمن حضر :

أسقى صرفاً حمياً تترك الشيخ صبياً

وتريه الغى رشداً وتريه الرشيد غياً

ورأى خادمهما الشرطى مقبلين ، فأسرع يخبرهما وكانا قد أعدا سرداباً يخفيان فيه الناس والحمير إذا وقع خطب من هذه الخطوب . فبادرا إلى محور أثر ما كانوا فيه . وكبس الدار رجال الوالى . فلم يجدوا غير أشعب وبنان . فقادوهما إلى مكة . فذهبا وتركا خادمهما يطلق الناس إذا لاحت ساعة الأمن والسلامة .

ودخل الرجال بأشعب على الوالى . فلما رآه قال :

— ليس هذا بينان . من أنت أيها الرجل ؟

فغمز أشعب بعينه وقال : خادمك وعبدك !

ولخط الوالى من حر كاته ما جعله يقول لرجاله :

— هذا الرجل شارب .

فقال أشعب : لا .. أصلحك الله !

فقال الوالى : استنكبهوه !

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فيه ثم قالوا :

— إن نكهته لا تبين عليه .

فقال الوالى : قيئوه !

فصاح أشعب : وإن لم أقيء شراباً فمن يضمن لى عشاى ! !

ولم يكذبهم عبارته . حتى دخل بقية الرجال بينان . فما إن رأى

الوالى بنان حتى عرفه وصاح به :

— يا عدو الله ! طردتك من مكة فصرت تفسد فى المشعر الحرام !

فقال بنان : يكذبون على أصلحك الله الأمير .

فأمر الوالى بوضعهما فى الحبس حتى الصباح . وما إن طلع النهار

وجلس الوالى فى مجلسه حتى أمر بأصحاب الشكاية فأحضروا . فسألهم

الدليل فقالوا : أصلحك الله ، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجميع حمير

مكة فترسل بها أمناء إلى عرفات ، فيطلقوها فان وقفت كعادتها على منزله

دون المنازل ، فنحن غير كاذبين ولا مبطلين .

فقال الوالى : نعم ، إن فى هذا دليلاً وشاهداً عدلاً .

وأمر من ساعته بحمير من حمر مكة التى للكراء ، فأرسلت وأطلقت

فاذا هى تشير إلى منزل بنان لا تلوى على شىء ، كأنها به عليمه خبيرة .

فلما علم الوالى بذلك قال : ما بعد هذا شيء . جردوه !
فأتى الرجال بنان وجردوه عن ثيابه . فلما نظر إلى الشياط ! التفت
إلى الأمير قائلاً : لابد أصلحك الله من ضربى ؟
فقال : نعم يا عدو الله !
فقال بنان :

— والله ما فى ذلك شيء هو أشد على نفسى ، من أن يشمت بنا
أهل العراق ويضحكوا منا ، ويقولوا أهل مكة يحيزون شهادة الحمير !
فضحك الوالى . وتفكر قليلاً ثم قال :
— أتحب أن أخلى سبيلك ؟ على شريطة . .
— وماهى حفظك الله وأبقاك .
— أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد .

* * *

ذهب بنان وأشعب توا إلى عرفات ليحملا متاعهما ويرحلا كما أمر
الوالى . فوجدوا خادمهما قد سبقهما إلى النية . فوضع الدراهم والملابس
وماخف وغلاف فى صرر . وتهياً للهرب . فوثب عليه بنان فضربه ضرباً
مبرحاً . فقال أشعب :

— ما تصنع ؟ لا تضرب العبد كل هذا الضرب فقد دفعت فيه كما
دفعت أنت . وحق فيه كحقوقك أنت !

فقال بنان :

— إني أضرب نصيبي منه .

فأشار أشعب إلى الصرر :

— وهذه ؟

فقال بنان :

— كل شيء يقسم بيننا بالعدل .

فقام أشعب إلى الخادم فضربه هو أيضاً قائلاً :

— وأنا أضرب حصتي فيه .

فانفلت منهما العبد وكان جليداً نشطاً ذكياً ، ورفع ثيابه وسلح

عليهما وقال :

— إقسما هذه على قدر الحصص !

وولى الأدبار . وبقياها مشغولين يومهما بجمع ما استطاعا جمعه وبيع

ما قدرا على بيعه ، وخرجا من ذلك النعيم آسفين ...

الفصل السابع

عاد أشعب وبنان إلى المدينة . فدخلها دخول الظافرين ، خلفهما
عبدما الهارب وقد راجعاه وأرضياه يحمل لهما الصرر والخيرات . وقد
تعاهدا على أن يقيما معا في منزل واحد لينفقا فيه هذا المال ^{سويا} . وذهب
أشعب إلى داره أول الأمر . فرأى امرأته وعياله وترك لهم بعض النفقة .
وعرج على الكندي يسأل عن خبره ويضحك من أطواره . ويرى كيف
وقع العودة عليه . فسأل عنه فقبل له إنه خرج فغير من بكرة الصباح
ليقتضى رجلا خمسة دراهم فضلت ديناً عليه . وإن هذا ما يشغله منذ أيام
طويلة . فهو يخرج من أجل هذا الدين من أول النهار فلا يرجع إلا مع
آخره لبعده الشقة وكثرة الماطلة . فجلس أشعب ينتظره حتى رجع . فما
وقع نظر الكندي على أشعب ليباه حتى امتنع لونه . فابتدره أشعب
صائحاً :

— لا تخش شيئاً ، بأبي أنت وأمي !

وقص عليه أخبار الرحلة ، وأراه ما هو فيه من النعمة فأشرق وجهه
الكندي . وجعل ينظر إلى ثوب أشعب النظيف معجباً أول الأمر .
غير أنه عاد فhez رأسه وقال متفاخراً :

— لا والله . أين هذا من ذلك القميص !

فلم يفتن أشعب وقال :

— أى قميص ؟ !

ونجاة تذكر الليلة التي سكر فيها الكندي . فضحك حتى دمعت عيناه . فأراد أن يسره ويهون عليه تلك المصيبة التي مازال يذكرها ، فدعاه إلى طعام وشراب في ذلك المنزل الذي جعله هو وبنان لمنادتهما وتعمهما . ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليعد وليمة في ذلك المساء ورأى أشعب أن شعره قد طال وبدنه قد اتسخ من طول السفر .
فقال للخادم :

— اختر لنا حماماً نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء ، وحلاقاً

خفيف اليد حديد الموسى قليل الفضول .

فقاده الغلام إلى ما أراد . ودخل أشعب الحمام ، فلم يرعه إلا رجل قد دخل على أثره وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج . ودخل آخر فجعل يدلكه دلكاً يكسد العظام ويغمزه غمزاً يهد الأوصال . ثم عمد إلى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء . وإذا الأول قد عاد غرأى الثاني منهما في العمل فلكمه لكمة كادت تطير أسنانه وقال له :

— يالكع ، مالك ولهذا الرأس وهو لى .

فقام إليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت تضعع صوابه ، وقال له :

— بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدي .

وتلا كما حتى تعباً ، وتجاوزاً الأثواب وساراً يتحاً كان إلى صاحب الحمام . فقال له الأول :

— أنا صاحب هذا الرأس . لأننى لطخت جبينه ووضعت عليه الطين وقال الثانى :

— بل أنا مالكه ، لأننى غسلته ودلكته صاحبه . فقال الحمأى :

— ائتونى بالزبون أسأله لآيكما هذا الرأس ؟ فذهب الرجلان إلى أشعب وقالا له :

— لنا عندك شهادة ، فقم معنا !

وكان أشعب مازال موضوعاً فى مكانه وضعا لم يفهم مما حدث أمامه شيئاً ولا أدرك لهذا الشجار معنى فتهض وسار معهما إلى صاحب الحمام . فابتدره الحمأى قائلاً :

— يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير الحق ، قل لى : هذا الرأس لآيهما ؟

فوقف أشعب دهشاً مشدوهاً لحظة ثم قال :

— يا عافاك الله ، هذا رأسى أنا ، قد صحبنى طول الطريق من المدينة الى مكة ومن مكة إلى عرفات وما شككت أنه لى .

فقال له الجماي منتهراً :

— اسكت يا فضولى !

ثم مال إلى أحد الخصمين وقال له :

— يا هذا . إلى متى هذه المناقصة بينكما على رأس صغير الشأن قليل

الخطر !

ثم عرج على الخصم الآخر وقال مهوئاً عليه :

— وأنت يا هذا ! هب أنك لم تر رأس هذا التيس !

فقام أشعب من ذلك المكان خجلاً . وارتدى ثيابه على عجل وانسل

من الحمام ، فوجد خادمه المنتظر بالباب يقول له :

— نعماً إن شاء الله !

فهوى فى الحال بكفه على قفا الخادم :

— أنعم الله عليك بهذا !

أسرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام أن يأتيه بحلاق ، وأن

يحذر هذه المرة ، فلا يحضره فضولياً ولا ثرثاراً . فحسبه ماذهب من

الوقت فى غير شيء ، سوى ما رآه من شجار وملاحقه من سباب !

فانصرف وعاد برجل ، دخل فسلم ، وماهو إلا أن دارت يده على

وجه أشعب حتى قال له :

— جعلت فداك ، هذا وجه لا أعرفه ، فمن أنت ؟

فقال أشعب :

— اسمي أشعب .

فقال الخلاق :

— بأبي أنت وأمي ، هذا اسم لا يجهله أحد في المدينة ! ومن أين

قدمت ؟ فاني أرى أثر السفر عليك ؟

فقال أشعب :

— من مكة .

فقال الخلاق :

— حياك الله ، من أرض النعمة والرفاهة ، وبلد رسول الله الكريم .

لقد حضرت في شهر رمضان جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح وأقيمت

التراويح . . .

وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى وأشعب يصبر نفسه

وفرع الخلاق من القصة فعاد يسأل :

— وأي شيء أقدمك ؟ أصلحك الله !

فأجاب أشعب :

— أقدمني الزمن وتقلباته ، ولكن إذا فرغت سأخبرك بالأمور

على وجهها .

فقال :

— وتعرفني بالمنازل والسكك التي جئت عليها .

فقال أشعب :

— نعم .

وكان الخادم واقفاً على مقربة منهما . فنظر إليه أشعب نظرة قاسية .
فدنا منه الغلام وهمس في أذنه معذراً :

— لن أجد حلاقا يسكت حتى يفرغ !

ومالت الشمس إلى الغروب . ولم يفرغ الحلاق من الكلام ،
ولم يفرغ مما جاء له ، وأخيراً قال :

— لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك . فهل
ترى أن نبتدىء ؟

فأسرع أشعب قائلاً :

— وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت ؟

ونهمض فوئب بعيداً . وما إن استوثق أنه أفلت من يد الحلاق
ومواسيه ، حتى صاح في الخادم :

— علق هذا الحلاق من العقبين .

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر . فقال له أشعب :

— جعلت فداك ، سألتني عن المنازل والسكك التي قدمت عليها ،

وأنا مشغول في ذلك الوقت ، وظننت أنك مشغول بعملك ، فأنا أقصها عليك الآن ، فاستمع : خرجنا من مكة في المساء فترلنا بئراً ذات نخيل في ظهيرة الغد . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة أسواط . فقال أشعب :

— وركبنا عند المساء فترلنا عين ماء حولها عشب عند طلوع النهار .

يا غلام ، أوجع !

فضربه الخادم عشرة أخرى . وقالت أشعب :

— ثم ركبنا ضحى اليوم وسرنا إلى نجع وقد أشرفنا على الأصيل .

يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة ثالثة . وقال أشعب :

— وبعدئذ ركبنا وسرنا حتى وجدنا . . .

فصاح الخلاق مقاطعاً .

— ياسيدي ، سألتك بالله إلى أين تريد أن تبلغ ؟

فقال أشعب .

— إلى المدينة .

فصاح الخلاق .

— لست تبلغها حتى تقملى .

فقال أشعب .

— أتركك على أن لا تعود ؟

فصاح الخلاق .

— والله لا أعود أبداً .

فتركه . وكان المساء قد أقبل . وحضر بنان والسكندى . وأبصر

الخدام يحل وثاق الخلاق . فـألاً فأخبرها أشعب الخير . فقال السكندى .

— وددت أنك بلغت به إلى أن تأتي على نفسه !

* * *

جلس الجميع يتحداثون ساعة قبل أن يوضع بينهم الخوان ويقدم

الشراب . وحلف أشعب على الخلاق أن لا يبرح حتى يحضر معهم العشاء .

فقد كفاه من التأديب ما أكله من يد العبد . وأخذ السكندى يجول

بنظره في أتحاء المكان ويعجب بالرياش . ولحه بنان فقال له باسمًا :

— أراك شديد العجب !

فقال السكندى :

— إى والله نعم .

ثم أردف سائلاً :

— ومتى كان الرحيل ؟ قبل أن أهدي أشعب القميص بكم يوم ؟

فلم يفتن بنان وقال :

— أى قميص ؟

فابتسم أشعب وتذكر عتدئذ أمراً كان يود أن يسأل الكندي فيه . فأقبل عليه يقول له :

— بالله إلا أخبرتنا : إنا نراك لأول مرة تصنع شيئاً الفساد فيه ظاهر والفائدة لك فيه غير مرجوة . أخبرنا عن مضيك كل يوم إلى رجل في آخر السوق لتقتضى منه خمسة دراهم ديناً عليه . . أهو حزم منك ؟ لا .
إنما الحزم أن يتشدد الانسان في غير تضجيع .

فالتفت الكندي إليه قائلاً :

— وما هو وجه التضجيع ؟

فقال أشعب :

— وجوه التضجيع كثيرة . فواحدة : إنا لا نأمن عليك انتقاض بدنك وقد خلا ما خلا من سفك ، وأنت تعتل ، فتدع انتقاض الكثير بسبب هذا القليل أو تتشاغل بالبعيد عن القريب ، وثانية : إنك أن تبهد هذا الجهد فلا بد لك من أن تزداد في العشاء إن كنت ممن يتعشى أو تمنعش . إن كنت ممن لا يتعشى . وهذا إذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم . وبعد فانك تحتاج أن تشق وسط السوق وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك فمن ههنا نثرة ومن ههنا جذبة ، فاذا الثوب قد أودى ، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق ، وساق سراويلك تتسخ وتبلى ، ولعلك أن تعثر في نعلك فتقدها قدماً ، ولعلك تهترتها هرتاً من كثرة الذهاب والاياب في

سبيل هذا الدين الزهيد . منذ متى وأنت تذهب للمطالبة والاقضاء ؟
فقال الكندي :

— منذ يومين من تاريخ الليلة التي أهديت فيها لك القميص .
فأخفى أشعب ابتسامة ومضى يقول :

— مضى إذن وقت طويل وأنت على هذه المشقة تتكبد كل ما ذكرنا
لك من الخسائر ، ولا تجنى إذا جئيت إلا خمسة دراهم . ولما كنا نتق
دائماً بحكمتك في كل تصرفاتك . فقد أعيينا والله هذه المشكلة . وأحببنا
أن نسألك فيها .

فتنحج الكندي وقال :

— أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فإن الذي أخاف على بدني
منه هو الدعة وقلة الحركة ، وهل رأيتم أصح أبدانا من الجمالين والطوافين .
ولربما أقمت في المنزل بعض الأمر فأكثر الصعود والنزول خوفاً من قلة
الحركة ، وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيد حتى أفرغ
من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة في الطعام فقد أيقنت نفسي
واطمان قلبي على أنه ليس لنفسى عندي إلا ما لها ، وإنها إن حاسبتني أيام
التعب حاسبتها أيام الراحة . وأما ما ذكرتم من تلقى الجمولة ومن مزاحمة أهل
السوق ومن التتر والجذب فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل
السوق لمصلاتهم ، ثم يكون رجوعى على ظهر السوق ، وأما ما ذكرتم من شأن

النعل والسر او يلى فانى من لدن خروجى من منزلى إلى أن أقترب من باب صاحبى فانما نعلى فى يدى وسراويلى فى كفى ، فاذا صرت إليه لبستهما ، فاذا خرجت من عنده خايعتهما ، فهما فى ذلك أودع أبداًنا وأحسن حالاً .
يقى الآن لكم مما ذكرتم شىء ؟ ؟

فقال أشعب والجميع متعجبين :

— لا .

فأردف الكندى باسمه :

— ههنا واحدة تفى بجميع ما ذكرتم .

فقالوا جميعاً فى لهفة :

— ما هى ؟

فقال الكندى :

— إذا علم المدين القريب ومن لى عليه ألوف الدنانير شدة مطالبته

المدين البعيد ومن ليس لى عليه إلا الدراهم ، أتى بحق كمالاً ولم يطمع نفسه فى مالى . فهذا تدبير يجمع لى إلى رجوع مالى طول راحة بدنى وليس من الحكمة أن أدع شيئاً من دين يطمع فى فضلة ما يبق على الغرماء .

ومسكت . فقالوا بأجمعهم فى صيحة إعجاب :

— لا والله لا سألتك عن مشكلة أبداً .

وجاء وقت الطعام . ووضع الغلام الخوان ، وقدم « مضيرة » من

لحم الجدى واللبن الحامض والتوابل والأبزار ، تثنى على كرم الشعب
وبنان وتشهد لها بالسعة والرخاء ، فى قصعة عظيمة يزل عنها الطرف بهاء
ورواء ، فما أخذت من المائدة مكانها ، حتى قام الخلاق على قدميه ساخطا
لاعنا ، يسب آكلها وطابخها ، فظنه الحاضرون يمزح ، فاذا هو جاد فى
الكلام وإذا هو يتنحى بعيدا تنحى السليم عن الأجرب ، فإبراهيم أمرها
وخافوا أن يمدوا إليها يداً ، فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم وسافرت
خلفها عيونهم . وتحلب لها فم الكندى وتلاظت لها شفتاه ، ولكنه أذعن
على مضض ، وأقبل كما أقبل الآخرون على الخلاق يسألونه عن أمرها
فتنهده وقال :

— قصتى معها أطول من مصيبتى فيها !

وسكت ، فصاحوا به :

— تكلم !

فتردد ثم قال :

— أخاف لو حدثتكم بها أن لا آمن من غضبكم وإضاعة وقتكم .

فزاد بذلك رغبتهم فى الاستطلاع فقالوا له جميعاً :

— تحدث .

فجلس وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال :

— منذ سنوات ثلاث دعانى خلاق من إخوانى الخلاقين ، ترك

الحرفة بعد أن أترى وجمع الأموال ، إلى أكلة «مضيرة» . ولزمنى ملازمة الظل إلى أن تركت حانوتى وزبائنى وأجبتة إليها ، وقتنا . فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ويفديها بهجته ويصف حذقها فى صناعة المضيرة وتأنقها فى طبخها ، ويقول .

— يا صاحبى لو رأيتها والخرقة فى وسطها وهى تدور فى المطبخ بين القدور تنفث بقمها النار وتدق بيديها الأبرار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر فى ذلك الوجه الجميل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقتنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، ولا سيما إذا كانت من طينته ، وهى أبنه عمى حلاً . مدينتها مدينتى وأرومتها أرومتى . ولكنها أوسع منى صدراً ، وأحسن خلقاً .

ومضى يحدثنى بصفات زوجته حتى انتهينا إلى الجهة التى يقيم فيها . فقال :
— يا صاحبى ترى هذه الجهة هى أشرف موقع بالمدينة ، يتنافس الأحيار فى نزولها ولا يقطنها غير كل عظيم وإنما المرء بالجار . ودارى فى وسطها كالنقطة فى الدائرة ، انظر إلى دارى وقل لى كم تقدر ثمنها . قلّه تخميناً
قلت :

— الكثير .

فقال

— يا سبحان الله ! تقول الكثير فقط ؟

وتنهذ ثم قال :

— سبحان من يعلم الأشياء !

وانتهيا إلى باب داره فقال :

— كم تقدر يا صاحبي أنفقت على هذا الباب ؟ أنفقت والله عليه فوق

الطاقة ، كيف ترى صنعه وشكله ؟ أرايت بالله نظيره ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيه ، وتأمل حسن تعريجه فكأنما خط بالبركار ، ثم هذه الحلقة فيه لقد اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير . وكم فيها من النحاس يا صاحبي ! فيها ستة أرطال ! بالله دورها ثم انقرها وأبصرها .

وقرنا الباب ودخلنا الدهليز . فقال :

— عمرك الله يادار ولا خربك يا جدار . تأمل بالله المعارج ، وتبين

دواخلها وخوارجها ، وسأني كيف حصلت عليها ، وكم من حيلة احتلت لها . فلقد كان لي جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه الدار ، وله من المال مالا يسعه الخزن . فمات رحمه الله وخلف خلفاً أتلف المال بين الحجر والزمر ، وخشيت أن تذهب الدار فيما ذهب . ويفوتني شراؤها فأقطع عليها حشرات إلى يوم المات ، فاحتلت حتى أقرضت صاحب الدار مالا احتاج إليه ، وتغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فسألته أن يجعل داره رهينة لديّ ، ففعل . ثم صبرت عليه إلى أن أفلس وآلت إلى

الدار بثمرن بخس . وأنا بحمد الله محظوظ . وحسبك يا صاحبي أتى كنت منذ ليال نائماً في البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب . فقلت من الطارق . فاذا امرأة معها عقد لؤلؤ تعرضه للبيع فأخذته منها إخذة خلس واشتريته بثمرن زهيد وسيكون له ريح وافر بعون الله تعالى . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة حظي . والسعادة تنبسط الماء من الحجارة . الله أكبر ، لا ينبغي لك أصدق من نفسك . ثم إنني اشتريت هذا الحصى في المنادات وقد أخرج من دور آل ثراء ، وكنت أطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه . وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصري ، فهو عمله وله ابن يخلفه الآن في حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده ، فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه . فالمرء من ناصح لاخوانه . ونعود إلى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهور يا غلام الطست والماء .

فقلت :

— الله أكبر ربما قرب الفرج .

وتقدم خادمه . فقال :

— ترى هذا الغلام . إنه رومي الأصل ، عراقي النشء ، تقدم

يا غلام ، واحسر عن رأسك ، وانض عن ذراعك وأقبل وأدبر .

ففعل الخادم ذلك . وقال صاحب الدار :

— بالله سلني من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو معن من النحاس .
يا غلام ضع الطست وهات الأبريق .
فوضعه الغلام وأخذه المضيف وقلبه بين يديه وأدار فيه النظر ثم
نقره وقال :

— انظر إلى هذا النحاس الأصفر كأنه قطعة من الذهب ، نحاس
الشام وصنعة العراق . تأمل حسنه وسلني متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام
الحجاءة . يا غلام الأبريق !
فقدمه . وأخذه رب البيت فقلبه بين يديه وقال :

— أنبويه منه ، لا يصلح هذا الأبريق إلا لهذا الطست . يا غلام ،
أرسل الماء ، فقد حان وقت الطعام ! بالله ترى هذا الماء مأصفاه ، أزرق
كعين السنور . وكأنه لسان الشمعة في صفاء الدمعة . وهذا المنديل سلني
عن قصته . فهو نسج جرجان ، وقع إلى فاشتريته . فاتخذت امرأتى بعضه
سراويلًا واتخذت بعضه منديلا . دخل في سراويلها عشرون ذراعا .
وانتزعت انتزاعا من يدها هذا القدر وأسلمته إلى المطرز حتى صنعه كما تراه
وطرزه . فادخرته للظراف من الأضياف أمثالك . يا غلام ، الخوان
والقصاع والطعام ، فقد كثر الكلام .

فأتى العبد بالخوان وقلبه صاحب البيت ونقره وعجمه بأسنانه وقال :
— عمر الله بغداد فما أجود متاعها . تأمل بالله هذا الخوان وانظر

إلى خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله .
فقلت له .

— هذا الشكل فتي الأكل .

فقال :

— الآن ، عجل يا غلام بالأكل ، لكن الخوان قوامه منه ...

فقتضت وقلت في نفسي .

— قد بقي الخبز وآلاته وصفاته والحنطة من أين اشتراها وكيف

أكثرى لها حمالاً وفي أي رحي طحن وكيف عجن وخبز ، وبقي الحطاب

ومتى جلب وكيف صنف وجفف . وبقي الخباز ووصفه والدقيق والخمير

وشرحه ، وبقي البقل وكيف قطف ونظف ، وبقيت المضيرة كيف

اشترى لحما ووفى شحمها ونصب قدرها ودقت أوزارها حتى أجيد طبخها

وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم . فقلت .

فقال :

— أين تريد يا صاحبي ؟

فقلت :

— حاجة أقضيها .

فقال :

— تريد كنيفاً أحسن من مصيف الأمير ويزري بمقصورة الوزير ،

قد سطح سقفه وفرشت أرضه بالمرمر، يمشى على أرضه الذباب فيزلق ،
وعليه باب من ساج وعاج ، مزدوجين أجهل ازدواج ، يتمنى الضيف أن
يأكل فيه

فقلت له :

— كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحسبان .

وخرجت من الدار وجعلت أعدو ، وهو يتبعنى ويصيح بى :

— يا أبا الفرج ... المضيرة ! .

وظن الصبيان فى الطريق أن المضيرة لقب لى ، فصاحوا صياحه
فضجرت ورميت أحدهم بحجر ، فأصاب الحجر عمامة رجل عابر وغاص
فى هامته . فأخذت من صفع الناس بمطاب وخبث . وضربت والله حتى
نسيت اسمى . ثم حشرت إلى الحبس فأقمت عامين فى ذلك النحس .
وخرجت فندرت أن لا آكل مضيرة طول حياتى . فهل أنا فى ذايا أسيادى
وإخوانى ظالم ١٤ » .

وسكت الحلاق . ونظر الى الجالسين يئمة ويسرة فوجدهم ينفخون
ويتلمظون لا من الجوع . بل من الغيظ . ولم يجدوا كلاما يقولونه له .
ولم ير أشعب جواباً يوجب به غير الإشارة إلى العبد والصياح
فيه قائلاً .

— علق هذا الحلاق من العقبين ، إلى ان نفرغ من العشاء !

وأرجعوا « المضيرة » ، فعادت إليهم باردة منكشة كالعجوز
الخيربون فأكلوها وقد ذهب روائها ومضت لذتها فجعل السكندى
يمضغ ويقول لأشعب :

— ألم أقل لك وددت أنك بلغت بهذا الخلاق إلى أن تأتى

على نفسه !



الفصل الثامن

لبث أشعب وبنان على هذه الحال أياماً ينفقان مما عندهما على طيب الطعام وجيد الشراب ، إلى أن أوشك ما جمعا أن ينضب ، ولما شبح الفاقة والجوع يقترب ، فحدثتهما النفس أن يصنعا ههنا ما صنعاه في عرفات . ولكن على نسق آخر ، خوفاً من سوء العاقبة . فبعث أشعب إلى الجارية « رشا » فحضرت . وأعد هو وبنان منزلاً في زقاق العطارين يشرف على السوق . وأوصيا الجارية أن تخطر بقدها المائس أمام المسجد إذا اجتمع الناس للصلاة العصر . فمضت وعلى وجهها خمار أسود ، تزهو من تحته عيناها كأنهما النجوم . فما كادت تسير خطوات حتى سمعت خلفها من يهمس في أذنها :

قل للمليحة في الخمار الأسود

ماذا فعلت بزاهد متعبد

قد كان شمر للصلاة ثيابه

حتى خطرت له بياب المسجد

ردى عليه صلاته وصيامه

لا تقتليه بحق دين محمد

فالتفت ، فرأت رجلاً ليس من أهل البلد نظيف الهيئة ، وقور
الطاعة يحد إليها النظر . فقالت له :

— اتبعنى .

فقال لها : إن شريطى الحلال .

فقالت له :

— قبحك الله ، ومن يريدك على حرام .

نخجل الرجل . وغلبته نفسه على رأيه فتبعها ، ومشيا حتى دخلا الزقاق
وبلغا المنزل . وصعدت الجارية درجة وقالت للرجل :

— اصعد .

فصعد . فقالت له :

— إنلى وجهاً أحسن من العافية ، مع صوت كهوت « ابن سريج »

وترنم « معبد » وتيه « ابن عائشة » أجمع لك هذا كله فى بدن واحد
بأشقر سليم .

فقال لها :

— وما أشقر سليم ؟

فقالت :

— بدينار واحد ، يومك وليلتك . فإذا أقت جعلت الدينار صداقا

وتزويجاً صحيحاً .

فقال الرجل :

— لك ذلك ، إذا جمع لي ما ذكرت .

فأجلسه في صدر الدار وخلعت خمارها . ورأى الرجل جمالها . فذهب

عقله . وقامت الجارية فقال لها :

— إلى أين جعلت فداك ؟

— ألبس وأتهيا ..

فصاح الرجل :

— بالله لا تسمى غمراً ولا طيباً ، فحسبك بدلالك وعطرك ...

فابتسمت له ابتسامة أجهزت عليه . وذهبت . وجاء الغلام ، فحيا

الرجل أجمل تحية ، وأسر له في أذنه :

— أخبرتك شريطتها ؟

فقال الرجل :

— لا والله . ما شريطتها ؟

فقال الخادم :

— لعلها نسيت تخبرك . هي والله أفنك من « عمرو ابن معديكرب »

وأشجع من « ربيعة بن مكرم » ، ولست بواصل إليها حتى تسكرو يغلب

على عقابها ، فإذا بلغت ذلك الحال ففيها مطمع .

فقال الرجل :

— ما أهون ذلك وأسهله !

فأردف الخادم :

— ثم شيء آخر .

— ما هو ؟

— أعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجردها وتترك مجرداً مقبلاً مدبراً .

فقال الرجل :

— وهذا أيضاً أفعله .

وتركه الغلام ومضى . واقبلت الجارية تموج ظرفاً وتميس لطفاً فقالت :

— هلم ديناراً !

فأخرج الرجل ديناراً فبذره إليها فصعقت فأجابها العبد . فقالت له :

— قل لأبي الحسن وأبي الحسين هلماً الساعة !

ومضى قليل . فاذا شيخان خاضبان نفيان ، هما أشعب وبنان ، قد

أقبلا فصعدا . فقصت الجارية عليهما القصة . وغمرت لهما بعينها غمرة

خفيفة لم يلحظها الرجل . فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر . ودعيا الرجل

فأقر بالتزويج واقرت الجارية . ودعوا الشاهدان بالبركة ، ثم نهضا وخرجا

واستحيا الرجل أن يحمل المرأة شيئاً من المؤونة فأخرج ديناراً آخر

دفعه إليها وقال :

— إجعلى هذا لطبيك .

فقلت له :

— يا أخى ، لست ممن يس طيباً الرجل ، إنما أتطيب لنفسى إذا خلوت .
فقال لها :

— فاجعليه إذن لعتائنا الليلة .

قلت :

— أما هذا فنعم .

ونهبضت فأمرت باصلاح ما يحتاج إليه . ثم عادت وأقبلت المساء ،
فدعت بالخوان والنبيذ . فتعشيا وشربا . وأمسكت بالعود واندفعت تغنى
راحوا يصيدون الظباء وإننى

لأرى تصيدها على حراما

أعزر على بأن أدوع شبهها

أو أن تذوق على يدى حماما

فكاد الرجل يحن سروراً وطرباً . وقال لها :

— جعلت فداك ، من يغنى هذا ؟

قلت :

— اشترك فيه جماعة ، هو لمعبد ، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة .

وجعل الرجل يحتمل لتدنو منه فتأبى عليه . ثم غنت بصوت لم يفهمه

للشقاء الذى كتب عليه :

كأنى بالمجرد قد علمته نعال القوم أو خشب السوازي
فقل لها :

— جعلت فداك ، ما أفهم هذا البيت ، ولا أحسبه مما يتغنى به !
قالت :

— أنا أول من تغنى به .

فقال :

— إنما هو بيت عابر لا ثانى له ؟

قالت :

— معه آخر ليس هذا وقته . هو آخر ما أتغنى به .

فسكت الرجل . وجعل لا ينازعها في شيء إجلالا لها ، إلى أن

أذنت العشاء ، فوضعت عودها . فقام فصلى العشاء ، وما يدرى كم صلى
عجلة وشوقاً . وفرغ من صلاته فأقبل عليها يقول :

— تأذنين جعلت فداك في الدنو منك ؟

قالت .

— تجرد !

وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد ، فكاد الرجل يشق ثيابه

عجلة للخروج منها . فتجرد ، وقام بين يديها . فقالت له .

— إمض إلى زاوية البيت ، وأقبل وأدبر ، حتى أراك مقبلا ومدبرا !

وإذا في زاوية البيت حصير في الغرفة على الطريق نخطر الرجل عليه .
وإذا تحته خرق إلى السوق . وإذا الرجل يجد نفسه في السوق مجرداً عارياً
كما ولدت أمه وإذا الشيخان الشاهدان « أشعب وبنان » قد أعدّ انغالهما
على قفاه ، واستعاننا بأهل السوق . فما أبقوا فيه عظاماً صحيحاً . وبينما الرجل
يضرب بنعال مخصوفة وأيد مشدودة ، إذا صوت تغنى به الجارية من
فوق البيت .

ولو علم المجرد ما أردنا
لحاربنا المجرد بالصحاري

فقال الرجل في نفسه .

— هذا والله وقت هذا البيت !

أمعن أشعب وبنان في هذا السبيل يمثل هذه الأساليب ، حتى ضجت
الناس وعمت الشكوى . وبلغ الأمر إلى المدينة وكان شديد الورع ،
صارم الخلق ، عبوس الوجه . فأرسل في طلب هذين المفسدين ، وأمر
هما للفور فجردا من ثيابهما وضربا ثلاثين سوطاً . وأمر بأموالهما الحرام
فضمت إلى بيت المال .

وتحمل أشعب وبنان الضرب . ولكنهما لم يتحملا كارثة ذهاب
المال . فصاح أشعب يستأذن على الوالى فأذن له . فبكى بين يديه وتباكى وقال :

— أصلحك الله ! أنجرد من ثيابنا ومن مالنا في يوم واحد !
فقال له الوالى .

— يا عدو الله ! لقد كنتم مجردان الناس من هذا وذاك في ليلة واحدة .
ورأى أشعب أن لا حيلة له مع هذا الوالى إلا أن يضحكه ، فاعله إن
ضحك نفا . فجعل يقص عليه طريف النوادر والوالى فى إطراره وتقطيعه
وعبوسه لا يمبر وجهه خيال ابتسامة . وسكت أشعب قانطاً .

فرفع الوالى رأسه وقال له :

— لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان أولى بك .
فقال أشعب :

— قد فعلت .

فقال له الوالى :

— أسمعنى ما حفظت من الحديث ؟

فتنحىح أشعب ثم قال :

— حدثنى زافع ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصاً مخلصاً .

فقال الوالى :

— هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟

فخار أشعب وتفكر لحظة ثم قال :

— نسي نافع واحدة .

فقال الوالى :

— والآخرى ؟

فقال أشعب :

— والآخرى .. نسيتهما أنا .

فلم يجب الوالى . ولم يزد على أن أمر بأشعب فضرب ثلاثين أخرى ...



الفصل التاسع

جعل أشعب وبنان يطوفان في الأسواق متجردين من مالهما وقد
أعياهما الجوع وضاق بهما الحياة . ولم يبق لهما مما سلف ، غير ذكرى
تعاود أشعب في كل ليلة . فيرفع عقيرته صائحاً :

شربنا كؤوس السعد حتى كأننا

ملوك لهم في كل ناحية وفر

فلما اعتلت شمس النهار رأيتنا

تخلى الغنى عنا وعاودنا الفقر

وأتعبهما كثرة المشى فقال بنان :

— مالنا نمشي في غير حاجة ؟

فقال أشعب :

— صدقت . والله لقد أنسانا العز وصايا أساتذة التطفيل رحمهم الله

لقد جاء في بعض نصائحهم الذهبية : « لا تمس إلى موضع لا تمضغ فيه
شيئاً »

فقال بنان :

— لو عرفنا موضع المضغ ...

فأجاب أشعب :
— لمشيئنا إليه دهرآ .

وتنهذ الرجلان ، ومضيا في السير . وإذا للفرج يلوح لهما عن كشب
في هيئة عرس في طرف المدينة ، قد نمت أنواره عن عظم شأنه فصاحا معاً
صيحة واحدة . ورخصا إليه . ولكنهما وجدا دونهما بابا قد ارتجج وبوابا
وقاحا غليظ الطبع يسب من لا يعرف من القادمين ، ويدفع بيده في صدورهم
فعلما أن لا سبيل إلى الدخول إلا بالحيلة . فانصرف كل منهما يدبر لنفسه
أمرآ .

وانطلق أشعب من ساعته يسأل عن صاحب العرس إن كان له ولد
غائب أو شريك في سفر ، فعلم أن له ولدا في اليمن هو أخ للعروس فأخذ
في الحال ورقة بيضاء فطواها وختمها وليس في بطنها شيء وجعل العنوان
« من الآخ إلى العروس » ثم أقبل متدللاً . فتعقق الباب قعقة شديدة ،
فقال له البواب :

— من أنت ؟

فقال أشعب :

— أنا رسول من عند أخي العروس .

ففتح له الباب . وتلقاه صاحب البيت فرحاً قائلاً له :

— كيف فارقت ولدى ؟

فقال أشعب :

— بأحسن حال وما أقدر أن أكلك من الجوع .

فأمر صاحب العرس بالطعام فقدم إلى أشعب ، فجعل يأكل . ولم يطق
صاحب الدار انتظاراً فقال :

— اما معك رسالة ؟

فقال أشعب :

— نعم .

ودفع إليه بالورقة فأخذها الرجل فوجد خاتماً طرياً فقال :

— أرى الطين طرياً ؟

فأجاب أشعب وفيه منتفخ بالطعام :

— نعم . وأعجب من هذا أنه ليس في بطن الرسالة ولا حرف واحد

لأن ولدك من العجلة لم يكتب فيه شيئاً .

فتنظر إليه صاحب العرس شزراً وقال له :

— أطفيلي أنت ؟

فأجاب أشعب وهو يتضع :

— نعم ، أصلحك الله

فقال الرجل :

— كل ، لاهمّ لك الله !

أما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخول . ثم تذكر أن في يده خاتما بقي له من أيام العز . فذهب من فوره إلى بقال فرهته عنده على عشرة أقداح وجاء إلى باب العرس يصيح :

— يا بواب افتح لى !

— من أنت ؟

— أراك لاتعرفنى . أنا الذى بعثونى اشترى لهم الأقداح .

ففتح له البواب . فدخل بنان فأكل هو أيضا وشرب مع القوم ، حتى فرغ فقام وأخذ الأقداح وخرج فردها على البقال واسترد خاتمه .

لم تكن الحيلة تنقص أشعب وبنان إنما الذى كان ينقصهما هو العلم بموضع الولائم والأعراس فان دون ذلك البحث الطويل والجهد الكثير ولم يفتح الله عليهما بحل لهذه المعضلة . إلى أن خطر على بال بنان يوما خاطر فقال لصاحبه :

— لا يعرف مكان الولائم والأعراس غير غلمان الأزقة والطرق .

فانك لتراهم منتشرين فى كل مكان ، ولهم علم بكل شأن . ولعل من بين عيالك من قشرد مثلهم . فأوص الأشد من أولادك أن يأتينا بالأخبار . وكان الحق فيما قال ، إذ لم يمض يوم حتى جاء ابن أشعب يجرى ،

فأخبرهم أنه مر بباب قوم عندهم وليمة . فأسرعوا ثلاثتهم إلى تلك الدار ودخلوا . وإذا صاحب البيت قد وضع سلماً ، فكلما رأى شخصاً لا يعرفه قال له : « اصعد يا أبى » . فصعد بنان وأشعب وابنه فوجدوا أنفسهم فى غرفة مفروشة . وتوالى الصعود إلى هذه الغرفة حتى وافى فيها ثلاثة عشر طفلياً . ثم رفع السلم ، ووضعت الموائد فى أسفل الدار . وبقى أشعب ومن معه فى العلو ينظرون متحيرين . فقال بعضهم :

— ما مر بنا مثل هذا قط .

فنظر أشعب إلى الحاضرين ملياً وقال :

— يافتيان ما صناعتكم ؟

فقالوا :

— الطفيلية .

فقال لهم :

— ما عندكم فى هذا الأمر الذى وقمنا فيه !

فأجابوا :

— ما عندنا فيه حيلة .

فقال لهم :

— وإذا احتلت لكم حتى تأكلون وتنبزلوا ، تقرون لى أنى أعلمكم

التطفل ؟

فنظروا إليه وقالوا :

— ومن تكون أنت بالله ؟

فقال :

— أنا أشعب .

فقالوا للفور :

— قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا .

فقام أشعب ، وأطل على صاحب الدار وضيوفه يأكلون ، فصاح به :

— يا صاحب البيت !

فرفع الرجل رأسه قائلاً .

— مالك ؟

فقال له أشعب :

— أيهما أحب إليك ، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل ،

أو أرمي بنفسى رأساً من هذا العلو فيخرج من دارك قتيل وبصير
عرسك مأتماً ؟؟

ثم جعل أشعب يجر سراويله ، كأنه يريد أن يعدو ويرى بنفسه .

فجعل صاحب الدار يقول :

— أصبر ، ويحك ، لا تفعل !

ثم أصدع إليهم خواناً ، انقضوا عليه انقضاض جوارح الطير ...

وجعل ابن أشعب يأكل ثم يشرب ثم يأكل . حتى لم يبق شيء
يؤكل فقاموا . وعند ذاك انتهى أشعب بابنه ناحية ولطمه هامساً .

— لو جعلت مكان كأس الماء الذي شربته لقيمت .

فأجاب الابن من الفور :

— إن كأس الماء يوسع محلاً للقم .

فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة ، ثم صفعه ثانية وقال :

— لم لم تنهني إلى ذلك قبل جلوسنا إلى الخوان !



الفصل العاشر

منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيلين الثلاثة عشر يختلفون إلى أشعب ، ويجلسون حوله في طرف من أطراف السوق ، يستمعون إلى حديثه ويتلقون نصحه . ولزمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل . وجعل أحياناً يحمل إلى أشعب بعض الطعام ويتلطف له ويتراضه ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة ، وكان يلح عليه إلحاحاً ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل ، وجاء هذا التلميذ إلى أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين يديه كما يتعد كل يوم قائله :

— إنصحنى !

فوضع أشعب الطبق في حجره وطفق يأكل . . ثم تنحج وقال :
— إذا دخلت عرساً ، فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام فلتعض ، ولا تنظر في عيون الناس ، ليظن أهل المرأة ، أنك من أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة ، فإن كان البواب غليظاً وقاحاً فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير أن تعنف عليه ولكن بين النصيحة والادلال . . .

وسكت أشعب واشتغل بالتمر ، فقال التلميذ : زدنى !

فقال :

— إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط ، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً .

— زدني !

— وإذا دعيت إلى وليمة ان شاء الله ، فإياك ثم إياك أن تتأخر إلى آخر الوقت ، بل استخر الله وكن من السبق وأول من يوافي ، واعلم أنه ليس يجيء في أول الأوقات إلا جلة الناس وسراتهم ، فعودك مع مثل هؤلاء فائدة ، وأنت معهم آمن مطمئن مسرور ، تسمع كل حديث حسن وخبر ظريف ، وأنت ريح البدن واسع الموضع طيب المكان ، فالزم هذه الطبقة لا يزال سوادك بياضهم قهلك ، فهؤلاء هم الذين يعرفون حقك ويكرمونك ويجلونك ويحلفون بحياتك وتعرف السرور في وجوههم ، فصولات الله على هؤلاء وعلى من ولداهم ! . . . وعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة ، أعلم يا مغفل أنك أول من يغسل يده ، والخوان بين يديك ، وأول القينة أنت تشربه ، والبقل الجيد يوضع قدامك ، وأول من يتبخر أنت . ثم إنك تأكل رؤوس القدور ، وكل شيء كثير ، والقدور ملاءى ، والماء بارد ، والخباز نشيط ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شيء من أمرك مستور ، أما إذا تأخرت أو تكاسلت إلى آخر الوقت فقد عطبت وهلك . فانك تصادف الطعام بارداً وهو فضلات القدور ،

والرقاق بقايا عجيبين ، فقد استعملوا الجيد ، والماء سخناً ، وصاحب
الولية ضجراً متبرماً . ذلك أنه لا يقعد على آخر مائدة إلا ضعفى الجيران
ومساكين المكان والقوام . فإذا قال لهم صاحب الدار : « قوموا سارعوا
إلى الخوان » نهضوا مزدحمين فابسطوا في ميدان المضغ ورفعوا قناع الحشمة
والصقوا الأكتاف بالأكتاف كأنهم بنيان مرصوص ، يأكلون ميمنة
وميسرة ، وتدور أيديهم على الخوان شرقياً وغربياً وتسمع للقم في حلوقهم
معمة . فان قدم لهم جداء وحملان فانما يقدم الجدى أضلاع باللحم ، فوقه
جلد وحوله « خس » و « هندبا » كأنه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقي
القصب قائماً . فإذا يكون حال من يأكل مع هؤلاء ؟ إنه يخرج من
العرس وما معه من العرس إلا شم الطعام وتمشيش العظام ...

وسكت أشعب . فقال صاحبه :

— زدنى .

فقال أشعب :

— وإذا قت من المائدة وقد تغديت ، فاقعد في وسط الدار يضربك
الهواء ، وأدع بالشراب ، فان أتوك ببئذ فهو أحب إلى رطلاً أو رطلين
ولا تصب فيه ماء . وإن حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد في الصدر فان القعود
في الصدر قعود مغن أو مخرف . وإن كان في البيت فأكهة كثيرة فاجذب منها
إليك ، إذ لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت بلا شيء . ولا تكن أنت الساقى .

وكن ذنباً ولا تكن رأساً . وإن كان في المجلس مغنية أو جارية حسنة
الوجه فاتق الله في نفسك ولا تولع بواحدة منهما والزم العافية . وإذا دار
النبذ في الأقداح فإياك أن تسكر وأن يرى القوم منك زلة أو كلمة غلط
فتخرج وقد انتهت سترك عندهم . فانك إن خلطت وولعت ومزحت فانما
هو صفع كله وعداوة بين جيرافك . إشر ب خمسة أقداح أو ستة أقداح
أو سبعة أقداح ولا تسكر . فان خشيت على نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك
معك . وإنما شرحت لك كل هذا تفصيلاً رغبة في إسداء النصيحة ، فافهم
تعلم ، وتعلم بأدب ، متعك الله بسعة الصدر وطيب الآكل والصبر على المضغ
إنها دعوة مغفول عنها .

وسكت أشعب . وسكت تلميذه . وإذا جماعة من أصحابهما الطفيليين
قد أقبلوا يتصايحون مهللين فعلم أشعب أنها وليمة . فوثب على قدميه وقام
التلميذ لقيامه . وصاح أشعب في الجماعة

— أين ؟

فقالوا :

— أتبعنا .

فشر عن ساقية وقال لهم :

— بل أتبعوني أنتم !

فساروا في أثره . ومشى هو على رأسهم ، ينظر إلى السماء ويدعو الله قائلاً :

— اللهم لا تجعل البواب لكزاً في الصدور ، دفاعاً في الظهور ،
طراحاً للقلانس . هب لنا رافته وبشره وسهل لنا إذهه !
وبلغوا باباً كبيراً قد رش الطريق أمامه وكفس . فاعتدل أشعب ،
وانتفخ في ثيابه ، وشمخ بأنفه وسار متهادياً متعالياً متباطئاً . ودخل غير
ناظر إلى البواب . فأفسح له البواب غير مجترى . على اعتراضه . وقد ظن
أنه ذو مقام . وتبعه صبيانهم وهم يثيرون إليه وينظرون إلى البواب كأنهم
يقولون له :

— نحن أصحابه وخلانه .

واستجاب الله دعاء أشعب ، فيسر له الدخول وما شعر أن قدميه
في الدار هو وأصحابه حتى أسرع فجلس وأجلسهم حوله . . . ودعى
بالطعام ، وحضرت الموائد ، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس .
ونظر أشعب إلى مائدة شهية توضع أمامهم . فالتفت إلى أصحابه وقال لهم :
— إفتحوا أفواهكم ، وأقيموا أعناقكم ، وأجيدو اللف ، واشرعوا
الأكف ، ولا تتضعوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين ، واذكروا سوء
المنقلب وخيبة المضطرب !

وشمر عن ساعده . وإذا تلميذه قد تعلق بكمه قائلاً له :

— إنصحنى !

فنظر إليه شزراً . فليس هذا وقت النصائح . والكلام الساعة يفوت .

عليه المنفعة ، وأية نصيحة يطلبها هذا أكثر من وجود الطعام ذاته بين يديه . ولكنه عاد فتذكر هدايا صبيه وأطباقه في أوقات العسر والمحنة ، فتلطف له وقال :

أنظر إلى ولا تخالفني على كل ما أقول !

وجاءهم بقصعة عليها « سمذان » ، فقال أشعب لتلميذه :

— كل من الأحمر . فإن فيه طعمين : طعم السكر وطعم الزعفران .

ولم يدعه يأكل غيره ، ثم أتوهم « بالهريسة » فقال أشعب لصبيه :

— كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثة .

فأكل التلميذ القدر الذي أمر به ، ولم يزد ، وجاءوهم « بالزيرباج » الأحمر فقال أشعب :

— كل لقمة أو لقمتين .

ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال له :

— لا تأكل إلا لقمة أو لقمتين ولا تكثر ، وأولع بهذا الخبز

اليابس الذي في القلية !

ثم جاءوهم « بالبقلية » فقال له :

كل لقمة أو لقمتين .

ثم أتوهم بالشواء ، فقال له :

— لا تأكل منه شيئا وأبق نفسك ، فإن في كل يوم نصيب الشواء

« بدائق » يقوم مقام هذا ويكفيك .

ثم جاءوهم « بالغالوزج » ، وكان كثير أشبيها بالصومعة ، فقال لتلميذه :
— إيت من تحت حتى ينهار ، وكل واكثر ، فانك لا ترى هذا

في كل يوم .

ثم أحضروا لهم « اللوزينج » فقال له :

— ازوج وثلث ، فان مت في هذا مت شهيداً !

ثم أتوهم بطبق عليه دجاج مسمن مشوى ، فهو عليه وأكل منه
إثنين أو ثلاثة وقال لصاحبه :

— كل ولا تقصر ، فان قيمة هذه ثلاثة دنانير ، فلا تأكل

إلا ما له قيمة !

ولبت أشعب وأصحابه على هذه الحال . وقد شغلهم أمر بطونهم عن
مائدة عظيمة في ناحية من المكان قد وضعت أمام والى المدينة . ولم يفتن
أشعب إلى وجود والى . ولكن والى فطن إليه . وعرفه ، ولكنه
كتم ذلك . ومال إلى صاحب البيت وقال له :

— من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان الأخضر ؟

فقال صاحب الدار :

— أصلح الله الأمير ، هذا رجل يقال له أشعب ، يشهد هذه

الولا ثم دعى أو لم يدع .

فقال الوالى .

— إذا أكل جئنى به .

وفرح الناس من الطعام ، ورفعت الموائد . فأسرع صاحب البيت إلى أشعب وأحضره إلى الوالى . فلما صار بين يديه ، قال له الوالى :

— هل دعاك أحد إلى هذه الوليمة ؟

فوقع أشعب فى الحيرة وقال :

— لا ، أصلحك الله !

فقال الوالى :

— ألا تعلم أن من جاء إلى طعام لم يدع إليه دخل سارقاً وأكل حراماً ؟
فقال أشعب :

— لا والله ما أكلت إلا حلالاً .

فنظر إليه الوالى دهشاً :

— كيف ذلك ؟

فأجاب أشعب :

— أليس يقول صاحب الوليمة للخباز : « زدنى كل شئ » ؟ وإذا أراد أن يطعم مائة قدر لمائة وعشرين وهو يقول : « قد يخبثنا من نريد ومن لا نريد » ؟ ! فأنما من لا يريد .

فابتسم الوالى وأعجبه الجواب وقال لأشعب :

— لقد اقتصصنا منك فيامضى . ذاك حق المسلمين ولكن اليوم . .

منى حاجتك ؟

فقال أشعب :

— أطال الله بقاء الأمير ! حاجتى . تكتب لى مفشوراً لا يدخل على

أحد فى هذه الصناعة إلا ويدي عليه مطلقه .

فضحك الوالى وهمس فى أذن صاحب الوليمة ثم أمر لأشعب بهدية ،

وأمر صاحب الوليمة له أيضاً بهدية . فخرج أشعب بأطباق من كل لون ...



الفصل الحادى عشر

لبث أشعب أياما يسير فى الأسواق فى غير شيء ، ينتظر أن يوافيه
أحد بخبر عرس أو وليمة وهو يندب ويغنى :

كل يوم أدور فى عرضة الدار أشم القطار شم الذباب
فاذا ما رأيت آثار عرس أو دخان أو دعوة الأصحاب
لم أعرج دون التقحم لأرهب سبا أو لكزة البواب
وطال انتظاره . ووقف على رجل يعمل طبقاً من الخيزران فقال له :
— أسألك بالله أن توسعه قليلا وأن تزيد فيه طوقا أو طوقين .

فرفع الخيزرانى رأسه وقال له :

— وما غرضك من ذلك ؟ أتريد أن تشتريه ؟

فقال أشعب :

— لا ، ولكن ربنا اشتراه شخص يهدى إلى فيه شيئا ذات يوم .

ثم تركه ومشى . فرأى رجلين يتهامسان ويتساران فى طرف السوق .

فوقف على مقربة منهما ينظر إليهما . وإذا تلميذه قد أقبل يقول له :

— لقد بحثت عنك فى مجلسك من السوق .

فقال له أشعب على عجل : أوليمة ؟

-- لا . ولكنه الشوق إلى حديثك .

فأشاح أشعب بوجهه عنه . وعاد إلى النظر في وجه الرجلين المتهامين ،
حتى افترقا وذهبا . فقال له تلميذه :

-- أتعرفهما ؟

فقال أشعب وهو ينصرف خائباً مع صاحبه :

-- لا ، ولكنى ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لى بشيء

وأطرق أشعب لحظة ، ثم رفع رأسه وقال لصاحبه :

-- كأتى بك لاتريد أن أزيدك فى النصيح ؟

فنظر إليه تلميذه :

-- لماذا ؟

فقال أشعب متخائلاً :

-- ذلك أتى أرى أطباقك قد انقطعت .

فقال الرجل :

-- ليس عندى الآن ما يهدى .

فقال أشعب :

-- أو ليس عندك ما يؤكل ؟

فأجاب الرجل :

-- إذا شئت فإن دارى دارك . فأتى منك حشمة ..

وقاد الرجل أشعب إلى يمينه وأنزله ضيفاً عليه . ودخل على امرأته
فأوصاها أن تعد لأشعب عشاء طيباً . وأكل أشعب ، ثم نظر في الدار وقال :
— عجبا ! أرى أنك من استواء الحال على قدر تحمد الله عليه . فما
شأنك وصناعة التطفيل ؟

قال الرجل :

— لقد علقتها ولا طاقة لى بتركها .

قال أشعب :

— لو أضفتى عندك أياماً أنصحك ، لما تركتك إلا وقد حذقتها
حذقا عظيما !

مكث أشعب في دار الرجل أياماً طويلة حتى ضجر وضجرت امرأته
فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة :

— يبقى إلى متى ؟

— كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟

فقالت المرأة بعد تفكير :

— أنا أجيئك بالخبر .

فقال زوجها :

— كيف تستطيعين ؟

فقلت :

— إلق يني وبينك شرا وتمحا كم إليه وأجاذبه الحديث .
ونهضا من ساعتها فتنشجرا وتظاهرا بالغضب والخصومة ،
وانطلقت المرأة إلى أشعب تقول له :

— بالذى يبارك لك فى ذهابك غداً ، أينا اظلم ؟
فقال أشعب :

— والذى يبارك لى مقامى عندكم شهراً ، ما أعلم .
فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع فى طول المقام .
فسقط فى أيديهما . ولم يعلما ما يصنعان . واعتاض الرجل وفكر حتى اهتدى
إلى حيلة ، فقال لامراته :

— إذا كان غداً فانى أقول له : كم ذراعاً تقفز ، فأقفز أنا من العتبة
إلى باب الدار ، فإذا قفز هو فاغلق الباب خلفه .

وكان الغد ، فأحكما التدبير . وجعل الرجل يحتال فى الحديث مع
أشعب حتى قال له :

— كيف قفزك ؟

فقال أشعب :

— جيد .

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله إلى خارج الدار وأذرعاً وقال لأشعب :

— تب ١

فنهض أشعب ووثب لا إلى الخارج ، بل إلى داخل الدار ذراعين .
فوجم الرجل . وقال لأشعب :

— عجباً ! أنا ووثبت إلى خارج الدار أذرعاً ، وأنت ووثبت إلى داخل

الباب ذراعين ؟ !

فقال أشعب من فوره :

— ذراعين إلى داخل خير من أربعة إلى « برا » !

الفصل الثانى عشر

انفض الناس عن أشعب آخر الأمر ، وهرب منه تلاميذه ومريدوه .
فقد أيقنوا أنه قد انتهى إلى الوقوع على منازلهم وتطبيق أصول التطفيل
على مواعدهم . فلبث أشعب أياماً وحيداً حزيناً لا يجد أنيساً ولا رفيقاً ،
يظفر بغداء ولا بعشاء . وخطر على باله صديقه بنان . ولم يدر أين اختفى .
فخرج يبحث عنه حتى قنط من الاهتداء إليه ، فقعده فى أول السوق يفكر
فى أمر غده . وإذا بنان قد أقبل يحمل قوساً ونشاباً ويجر كلباً ، فما رآه
أشعب حتى صاح به :

— أين كنت ؟ أخزأك الله !

فقال بنان :

— فى الصيد ، خبيك الله !

— الصيد !

— نعم ، صيد الطير والظباء . إنه لعمل أجدى عليك من هذا

القعود تنتظر مالا يجىء ، قم معى إلى الرزق الحلال ، تستمتع بالصيد
الشهى واللحم الطرى والهواء النقي ...

فنظر أشعب إلى مافى يد صاحبه وقال :

— وأين لك بالقوس والنشاب ؟

— بعث خاتمي واشتريت كل ماترى .

— وأنا ماذا أصنع ؟

— إصنع مثل ما صنعت أنا .

— ليس عندي شيء يباع .

— أو ليس عند امرأتك أو عيالك شيء ؟

قهض أشعب لوقته ، وقال لبنان :

— افتر هاهنا حتى أعود .

ومشى إلى بيته . وأشعب لا يذكر بيته إلا يوم تضيق به الدنيا ،
فصادف الكندي بالباب ...

فأراه الكندي حتى خف إليه وعانقه عناق المشتاق وقال له في
صوت العتاب :

— ألا عدتني وقد كنت مريضاً ؟

فقال أشعب :

— جعلت فداك ، متى مرضت ؟

فقال الكندي :

— بمد أربعين يوماً من تاريخ اليوم الذي أهديتك فيه القميص .

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام في نفسه :

- بعد أربعين يوماً من تاريخ البعثة بالقميص ! أى منذ متى على التحقيق ؟ إن هذا التاريخ والله ولا التاريخ القبطى !
- ثم ترك الحساب والتفت إلى الكندى قائلاً :
- الحمد لله على كل حال ، إذ رأيتك وقد رد الله إليك العافية .
- ورأى أشعب أن ينفذ بهذا الشوق والود . وحدثه نفسه أن يفضى إلى الكندى بما جاء له . فجلس إلى جواره وتحنن وقال :
- لى إليك حاجة .
- فقال الكندى على عجل :
- ولى إليك أنا أيضاً حاجة .
- فقال أشعب واجماً :
- وما حاجتك ؟
- فقال الكندى :
- لست أذكركها لك حتى تضمن لى قضاءها .
- فقال أشعب :
- نعم .
- فقال الكندى :
- حاجتى أن لا تسألنى هذه الحاجة .
- فقال أشعب :

— إنك لا تدري ما هي ؟

— بلى . قد دريت .

— فما هي ؟

فقال الكندي :

— هي حاجة ، وليس يكون الشيء حاجة إلا وهي تخرج إلى شيء من الكلفة .

فقال أشعب متخائلاً :

— هذا حق . ولكن ... أنت خير من يتكلف لي . وقد جئتك

أسألك أن تسلفني وتؤخرني ...

فقال الكندي :

— هاتان حاجتان .

فقال أشعب :

— نعم

فقال الكندي :

— وإذا قضيت لك إحداها ؟

فقال أشعب من فوره .

— رضيت .

فقال الكندي :

— أنا أوخرك ما شئت ولا أسلفك .
فيئس أشعب منه . ولم ير في الكلام معه غير إنفاق الوقت في غير
طائل . فقام يريد الذهب .

فتفكر الكندي لحظة ثم صاح به :
— والله لا تنصرف خائبا .

فوقف أشعب دهشا . ومضى الكندي يقول :
— أما الدرهم فأنت تعلم أن ليس من عادتي إخراجه فهو متى ألقى في
الكيس سكن على اسم الله فلا يهان ولا يذل ولا يزعج . أما إذا شئت
فإني أهدي اليك قربة من عسل الرطب ، جاءتني هدية من البصرة فبعها
إن أردت واقض حاجتك !

فعجب أشعب . ولم يصدق أذنه . وأنكر ذلك من مذهب
الكندي . ولم يعرف جهة تدبيره . وهو يعلم أنه إنما يجزع من الإيعطاء
وهو عدوه . وأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته ، وأنه لو أعطى أفاعى سجستان
وثعابين مصر وحيات الأهواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعا عليها .
فكيف يعطيه هذه الهدية التي جاءت به ، بهذا الكرم ! وجعل أشعب
يحتال عليه ليعرف منه السبب . والكندي يتمنع ويتمصر . ثم باح بسرّه
آخر الأمر قائلا :

— هذه الهدية التي جاءتني ، خسائرها أضعاف مكالمتها ، وأخذها

عندى من أسباب الأدبار والدمار. فقال له أشعب: — لعل أول خسارة احتمال الشكر عليها برد نظيرها. فقال الكندى: — هذا لم يخطر لى قط على بال. فقال أشعب: — ها هنا إذن ما عندك من الأسباب؟ فقال الكندى: —

— أول ذلك كراء الخمال الذى ينقلها إلى البيت. ثم هى على خطر حتى تصير إلى منزلى ، فإذا صارت إلى المنزل صارت سببا لطلب العصيدة والأرز. فإن بعثها قاراً من هذا ، صيرتمونى شهرة وشعة ، وإن أنا حبستها ذهبت فى العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وإن أنا جعلت هذا العسل نبيذاً ، احتجت إلى كراء القدور وإلى شراء الماء وإلى كراء من يوقد تحته وإلى التفريغ له. فإن وليت ذلك الخادم اسود ثوبها وغرمتا ثمن الأشتان والصابون. وازدادت فى الطمع على قدر الزيادة فى العمل .. فإن تفاضينا وصنعنا النبيذ على رغم ذلك ، وعلم الصديق أو النديم أن عندى نبيذاً فى الباب دق المدل ، فإن حجبتاه فبلاء ، وإن أدخلناه فشقاء ، إذ لا بد له

من درهم لحم ومن طسوج نقل وقيراط ريحان ومن أيزار للقدر وحطب
للوغود ، وهذا كله غرم ، إن رضيت به فقد شاركت المسرفين وفارقت
إخواني من المصلحين ، فإذا صرت كذلك فقد ذهب كسبي من مال غيري
وصار غيري يكتسب مني وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له ، فكيف إذا
ابتليت بأن أعطي ولا آخذ ، أعوذ بالله من الخذلان بعد العممة .

* * *

أخذ أشعب القرية فأعطى نصفها عياله وحمل النصف الآخر إلى
السوق فباعه بما بلغ . وذهب إلى بنان فأخبره الخبر فضحك ، وضحكا .
ثم نهضا . وقال بنان لصاحبه :

— هلم نشتري لك قوساً . فما معك يكفي لشرائها ؟

فنظر أشعب إلى النقود في كفه وقال :

— أنا الآن في أمان من الجوع ليلتين أو ثلاث أو أربع .

فقال بنان :

— أنضبع رأس المال في طعام ليلتين وتبعد بعد ذلك تتضور :

فقال أشعب :

— وهل تريد أن أضبع طعاماً مضموناً في يدي بطعام مازال هامئاً

في الخلاء والسماء قد يصاد وقد لا يصاد ؟

واشتد الخلاف بينهما . واحتال بنان حتى أخذ النقود في يده .

فجذب صاحبه من كمه ومشى به قسراً إلى البائع فاختر له قوساً ، وضعها
في يده فأمسك بها أشعب ونظر فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه لجمالها .

فقال للبائع :

— كم ثمنها ؟

فقال الرجل :

— أقل ثمنها دينار .

فصاح أشعب :

— دينار ! والله لو أنى إذا رميت بها طائراً في السماء وقع مشوياً
بين رغيفين ، مادفعت فيها ديناراً أبداً !

فنظر البائع إلى بنان نظرة المستجير . فتدخل بنان في الأمر وقال
لصاحبه همساً :

— ليس في الثمن غلو . فلقد اشتريت قوسى هذه بأكثر من ديناراً
وذكر بنان أن المال معه ، فلم ينتظر رأى صديقه وأسرع فأعطى
البائع الثمن . وجذب ذراع أشعب . وانصرف به . . .

لم تمض ساعة حتى كان الصديقان قد خرجا من المدينة وضربا في
الفلوات ، وأوغلا في الخلاء . . كل يحمل قوسه ونشابه وخلفهما الكلب -
وعيناها شائعة بين الأرض والسماء ، يبحثان عن الصيد . ومضى النهار

وهما في مشى وبحث وكد وانتظار ، وإذا الكلب ينبج فجأة وينطلق
في أثر شيء مر أمامهما كالبرق . فنظرا ، فإذا ظبي قد عنّ لهما . فوقفا .
ووقف قلباهما من الفرح والاضطراب . وأمسك كل بقوسه . ورمى بنان
الظبي فأخطأه . ورماه أشعب فأخطأه وأصاب الكلب . وهرب الصيد ،
ومات الكلب . وجلس الصيادان ، وقد أضناها التعب والجوع
والفجعة في قلوبهما . . .

الفصل الثالث عشر

طال جلوس الصديقين وإطراقهما ، واشتد جوعهما . فرفع أشعب رأسه وقال لصاحبه :

— قد جربنا صيد الظباء فلنعد إلى صيد الموائد .

ثم نهض ونظر إلى الأفق فوجد نخلا كثيراً فقال :

— أرى قرية قريبة . هلم إليها .

وأمدك بيد بنان . وسارا حتى بلغا القرية ، فإذا هما أمام دار قد مات صاحبها ، ونساء القرية يلطمن صدورهن ، ويضربن صدورهن . ورجالها قد كوى الحزاع أفئدتهم . والميت في صحن الدار قد سخن ماؤه ليغسل ، وخيطة أبوابه ليكفن . فعلم أشعب وبنان أن لا أكل ولا طعام في مثل هذه القرية الليلة . وخطر على بال أشعب خاطر . ودفعه الجوع إلى الحيلة ، فغمز ، صاحبه ، ثم تركه وتقدم إلى الميت فحس عرقه وصاح في الناس :

— يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه ، فهو حي ، وإنما عرته بهتة .

وأنا أسأله إليكم مفتوح العينين بعد يومين !

فقال الناس :

— من أين لك علم ذلك يا هذا ؟

فقال أشعب :

— إن الرجل إذا مات ، برد أسته ، وقد لمست هذا الرجل فعلمت

أنه حي .

فتقدم الناس إلى الميت وجعلوا أيديهم في أسته ، ثم قال بعضهم

لبعض :

— الأمر على ماذا ذكر الرجل ، فافعلوا كما قال ...

وتركوا أشعب يصنع ما يريد ، فقام إلى الميت فزع ثيابه ثم ألبسه

عمامة وعلق عليه تانم ، وألغقه الزيت وأخلى له الدار ، وقال للناس :

— دعوه ولا تروعه ! وإن سمعتم له أنيناً فلا تدخلوا عليه !

وخرج أشعب من دار الميت وقد شاع الخبر بأن الميت قد ردت إليه

الحياة . فانهالت الهدايا على أشعب وبنان من كل دار . حتى ورم كيسهما

فضة وذهما ، وامتلأ رحلها سمناً ووجيناً وتمراً . وجهداً في أف تنتمزا

فرصة للهرب فلم يجداهما حتى حل الأجل المضروب . وأقبل الناس على

أشعب بعد يومين يستنجزونه الوعد ، فقال لهم :

— هل سمعتم لهذا العليل أنيناً أو رابتكم منه حركة ؟

فقالوا :

— لا .

فقال لهم :

— إن لم يكن قد تحرك بعد أن فارقتاه ، فلم يجيء بعد وقته . دعوه إلى غد ، فاذا سمعتم صوته فعرفوني لأحتال في علاجه ، وإصلاح ما فسد من مزاجه .

فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غدا !

فقال : لا .

وجاء الصباح وانتشر الضوء ، فجاءه الرجال والنساء أفواجا وصاحوا به :

— نحب أن تشفى المريض ، وتدع القال والقيـل .

فقال أشعب :

— قوموا بنا إليه !

وذهب معهم إلى الميت ، فحذر عنه التماسم وقال لهم :

— أقيموه على وجهه !

فأقاموه . فقال لهم :

— أقيموه على رجله !

فأقاموه . فقال لهم :

— خلوا عن يديه !

ففعلوا . فسقط الميت رأسياً . ولم يدر أشعب ما يفعل ولا ما يقول ،

ولم يزد على أن همس :

— إنه حقيقة ميت .

فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الآ كف . وتناولوه القوم بالصنع والضرب ، وصار إذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى . ثم تشاغل الناس بتجهيز الميت ، فانسل أشعب وبنان هارين حتى أتيا قرية أخرى على شفير واد ، قد جار عليها السيل . وأهلها مفتمون محزونون من خشية الفرق . فتقدم بنان وقد حدثته نفسه أن يبرز صديقه في الاحتيا ، فنظر إليه وابتسم ، ثم صاح في أهل هذه القرية :

— يا قوم ! أنا أ كفيكم شر هذا الماء . وأرد عن هذه القرية

ضرره . فأطيعوني !

فالتفت الناس إلى بنان في رجاء وقالوا له في الحال :

— وما أمرك ؟

فقال بنان :

-- إذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتوني بجارية جميلة

عذراء . وصلوا خلفي ركعتين لله ؟ فان فعلتم ذلك انثنى الماء عنكم إلى

هذه الصحراء . فان لم يثن فدمي عليكم حلال !

فقالوا جميعاً :

— نفعل .

وقاموا من ساعته فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية ، وقام بنان

إلى الركعتين بصليهما ، وهو يقول :

— يا قوم ! احفظوا أنفسكم لا يقع منكم سهو في القيام أو في الركوع ،
فتمت سهونا أو هفونا ذهب عملنا باطلا . واصبروا على الركعتين فمساقتها
طويلة . . . ١ .

وقام بنان للركعة الأولى فأطال الوقوف حتى كادت تنخلع
أضلاع الناس . وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد راح في سبات . ولم
يجرؤوا على رفع الرؤوس ، خشية أن يذهب بجهدهم في غير طائل . إلى
أن جاء وقت السجدة الثانية ، فأومأ إلى أشعب ، وانسلا ، فأخذوا طريق
الوادي ، وتركوا أهل القرية ساجدين ، لا يدري أحد ما صنع الدهر بهم .

مشى أشعب يحمل الزاد والمال ، ومشى خلفه بنان مع الجارية الحسنة
التي زوجها منه وجعلوا يضربون في الفلاة على غير هدى ، حتى أشرفوا
على الهلاك . وإذا هم يسمعون صهيل خيل ، فالتفتوا فوجدوا جماعة
مسافرين ، إلى البصرة فركبوا معهم . وقد اطأنت قلوبهم وأمنوا على
أنفسهم وعلى الغنيمة ، وما كادوا يوغلون في بطن الصحراء . حتى عن
لهم فارس ، جعل ينظر في القوم ، إلى أن وقع بصره على أشعب ، وراه
وحيداً منفرداً بين الجماعة ، فنزل عن فرسه ، وتقدم إليه وقبل قدميه ،
فنظر إليه أشعب ، فوجد وجهاً متهللاً ، لفتى أخضر الشارب ، ملآن

الساعد ، قوى المضل ، خريف اللحظ لطيف الحديث .
فقال له .

— مالك ؟

فقال الشاب :

— أنا عبد بعض الملوك هم يقتلى ، فهمت على وجهى إلى حيث ترائى
وأنا اليوم عبدك ومالى مالك .
فقال أشعب :

— بشرى لك وبك !

ورأت الجماعة ذلك ، فقبضت أشعب على هذا العبد وهنأته ، وجعل
العبد ينظر فتقتلهم ألقاظه ، وينطق فتفتنهم ألقاظه . ثم قال :
— يا سادة ! إن فى سفح هذا الجبل عينا ، وقد ركبتم فلاة طويلة ،
نخذوا من هنالك الماء !

فلووا أعنة الجياد إلى حيث أشار . وبلغوا الجبل وقد صهرت
الهجرة الأبدان .
فقال لهم :

— ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب ، على هذا الماء الزلال !
فقالوا : أنت وذاك .

فنزل عن فرسه . وحل منطقتة . فما استتر عنهم إلا بغلالة تم على

بدنه ، فما شكوا أنه خاصم الولدان ففارق الجنة وهرب من رضوان .
وعمد إلى السروج فخطها وإلى الخيل فحش لها العشب . وإلى الأمكنة
فكنسها ورشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأبصار عليه .

فقال له أشعب :

— يا فتى ! ما أطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة ! كيف أشكر الله

على النعمة بك !

فقال :

— ما سترونه مني أكثر . أتعجبكم خفتي في الخدمة وحسني في
الجملة ؟ فكيف لو رأيتموني في الجدد والفروسية ، أريكم من حذق طرفا
لتردادوا بي شغفا ؟ ؟

فقالوا جميعاً :

— هات !

فعمد إلى قوس أشعب فأخذها ورمى في السماء سهماً ، وأتبعه بآخر
شق أجواز الفضاء وقال :

— سأريكم نوعاً آخر !

ثم عمد إلى كنانة بنان فحملها وإلى أكرم جواد من جياد القوم
فامتطاه . ثم رمى أحد الجماعة بسهم أثبتته في صدره ، وعاجل آخر بسهم
طيره من ظهره .

فصاح أشعب :

— ويحك ، ما تصنع !

فقال الفتى ، وقد تغير صوته :

— اسكت يا الكع ! فليشد كل منكم يد رفيقه وإلا اختطفت روحه !

فلم يدر القوم ما يصنعون ؟ فخيّلهم مربوطة وسروجهم محطوطة
وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب وهم على أقداسهم ، والقوس في يده يرشق
بها الظهور ، ورأت الجماعة الجد والعزم في عين الفتى ، فشد بعضهم بعضاً
من الخوف وبقي أشعب وحده لا يجد من يشد يده . فقال له الفتى :

— أخرج بجلدك عن ثيابك ومالك ، لا أم لك !

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد الآخر ، وينزع
ثيابه وكيس ماله وزاده ، حتى جردهم مما يملكون . وعاد فاعتلى فرسه
ولكزه لكزة انطلقت به انطلاق السهم في كبدة الفلاة .



جزع القوم فقد فقدوا الزاد ، وهم الآن لا يملكون الذهب ولا
الرجوع . ووقعوا في حيرة من أمرهم . فقال قائل إن خير السبل امتطاء
خيّلهم والامعان في السير إلى البصرة وهي من موضعهم هذا أقرب البلاد
اليهم . فتزودوا من ماء العين ووثبوا إلى أفراسهم ، وظلوا سائرين حتى
لاحت لهم قرية في طرف من أطراف البصرة ، وكان الجوع قد أوشك

أن يقتلهم . فما بلغوا أول دار من دور القرية حتى وثبوا من فوق أفراسهم فوجدوا أنفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره ، فنظر إليهم وقال :
— من أنتم ؟

فقالوا :

— أضياف لم يذوقوا شيئاً يؤكل منذ ليال ثلاث .

فابتسم الرجل وقال :

— اجلسوا ؟

وسكت طويلاً . ثم نظر في وجوههم ملياً . ثم تنهد . ثم ابتسم ثم
تفحّج وقال لهم :

— ما رأيكم يا فتيان في زبدة متوّجة بمعجوة خيبر الواحدة منها تلاءم
الغم ويوحل فيها الضرس ، عليها لبن قد حلب من نوق مسمنة ، أتشبهونها
يا فتيان ؟

فقالوا جميعاً :

— إى والله نستهيها .

فقهقه الشيخ وقال :

— وعمكم أيضاً يشهيها .

وصمت لحظة ، ثم قال :

— ما رأيكم يا فتيان في عصيدة من دقيق قد نخل حتى صار كانه

سحالة الذهب ، وسمن عربي بصرى أنضج حتى قال « بق بق بق » ، على
حواشيه رقاق ملفوف بلحم قد نعم قطعه ، وفوه بالآبازير ، ومزج بالبصل ،
وقلى في الدهن . أفشتهنونها يافتيان !

فاشرأب كل منهم إلى وصفه . وتحلب ريقهم وتلمظوا وتمطقوا .

وقالوا :

— إى والله نشتهيا .

فقهمه الشيخ وقال :

— وعمكم والله لا يبغيها .

وسكت برهة ، ثم قال :

— مارأيكم يافتيان في عنزة من نجد قدأكلت الشيخ ، والقيصوم

والهشيم ، حتى وري مخها ، وكثر شحمها وطاب لحمها . تنضج لكم من

غير امتحاش ، أو إنهاء . وقدم إليكم على خوان منضد بالبقل والخبز ،

فتوضع بينكم تتساقط عرقا وتتسابل مرقا . أفشتهنونها يافتيان ؟

فقالوا :

— إى والله نشتهيا .

فقال الرجل :

— وعمكم والله يرقص لها .

ولم تطلق الجماعة أكثر من ذلك فوثب بعضهم إلى الرجل بالسيف قائلين :

— ما يكفي ما بنا من عض الجوع ، حتى تسخر منا . . .
وقاموا وانفضوا عنه وهم يسبونهم ويدعون عليه . . . وأسرعوا في
الدخول إلى مدينة البصرة حيث تفرقوا ، وذهب كل لشأنه . وأخبرت
الجارية زوجها « بنان » أن لها أهلاً في البصرة ، يضيفونهما فانطلق معها
بنان إلى أهلها . وتركوا أشعب وحده . . .



الفصل الرابع عشر

جلس أشعب على رأس الطريق وحيداً غريباً في هذا البلد لا يعرف أحداً فيه . ولا مال معه ولا زاد . وقد أضرَّ به الجوع ، فجعل يتنهد ويقول لنفسه :

— لعن الله المال الحرام ! كلما جمعناه ، ذهب عنا سريعاً . وعدنا شراً مما كنا !

وسمع خلفه جلبة ، فالتفت ، فرأى عشرة رجال مجتمعين . فصاح :

— إنه الفرج .

ونهض نشيطاً ، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول في نفسه :

— ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة !

ولم يلبث أن جاء من يقود هؤلاء العشرة ويتنصّب بهم ، حتى انتهوا إلى زورق قد أعدَّ لهم . فأدخلوا الزورق فقال أشعب لنفسه :

— هي نزهة .

ودخل معهم . وإذا هو يرى الرجال العشرة قد قيدوا بالحديد ، وقيد هو معهم . وإذا هو يعلم أن هؤلاء عشرة من الزنادقة ذكروا بالاسم للمأمون ، فأمر أن يحملوا إليه . فجمعوا له . ولم يلبث أشعب أن وجد

الزورق قد وصل إلى بنداد . وإذا هو يساق ضمن العشرة ، حتى أدخلوا
على المأمون . وجعل المأمون يدعو بأسمائهم رجلا رجلا ، فيأمر بضرب
رقابهم ، حتى استوفى العدة وبقي أشعب . فدهش المأمون وقال للموكلين :
— ما هذا ؟

فقالوا :

— والله ماندرى يأمر المؤمنين ، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به .
فالتفت المأمون إلى أشعب قائلاً :
— ما قصتك ويحك ؟

فصاح أشعب :

— يأمر المؤمنين ! امرأتى طالق إن كنت أعرف من أحوال
هؤلاء شيئاً ولا مما يدينون الله به . إنما أنا رجل طفيلى رأيتهم مجتمعين
فظننتهم ذاهبين لدعوة .
فقال المأمون :

— ليس هذا مما ينبجيك منى ، اضربوا عنقه !

فصاح أشعب :

— أصلحك الله ، إن كنت ولا بد فاعلا فأمر السيف أن يضرب
بطنى بالسيف فانه هو الذى ورطتى هذه الورطة !
فالتفت المأمون إلى رجاله وقال :

— يؤدب .

نفرجوا بأشعب وهو ينتفض في ثيابه رعباً . وكان وزير المأمون :
إبراهيم بن المهدي قائماً على رأسه ، فلما رأى ذلك لم يستطع كتمان ابتسامه ،
وما تمالك أن قال :

— يا أمير المؤمنين هب لي ذنبه ، وأحدثك عن حديث عجيب عن
نفسى وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة ١ .
فاشتاق المأمون إلى الحديث وقال :

— قل يا إبراهيم !

قال إبراهيم بن المهدي :

« خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة ، فطفت في سكك بغداد ،
فانتهيت إلى موضع ، فشممت روائح أبازير قدور قد فاح طيبها ، فتأقت
نفسى إليها ، فوقفت على خياط قفلت :

— لمن هذه الدار ؟

قال :

— لرجل من التجار .

قلت :

— ما اسمه ؟

قال :

— فلان بن فلان .

فنظرت إلى الدار فإذا بشباك فيها مظل ، فرأيت كفا قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم . فشعاني يأمر المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور . وبقيت باهتا ساعة . ثم أدركني ذهني فقالت للخياط :

— أهو ممن يشرب ؟

قال :

— نعم وأحسب أن عنده الليلة دعوة ، وليس ينادمه إلا تجار عمله مستوردون .

فبينما أنا كذلك إذ أقبل رجلان نيلان راكبان من رأس الدرب فقال الخياط :

— هؤلاء منادموه .

فقلت :

— ما أسماهما ؟ وما كناهما ؟

قال :

— فلان وفلان .

فحركات دابتي وداخلتهما : وقلت لهما :

— جمعت فدا كما ، قد استبطأ كما أبو فلان أعزه الله .
وسايرتهما حتى بلغا الباب . فادخلاني وقدماني . فدخلنا . فلما رأى
صاحب المنزل لم يشك أنى منهما بسبيل ، أو قادم قدمت عليهما من
موضع . فرحب بي وأجلسني في أفضل مكان . وجيء بالمائدة وعليها خبز
نظيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أطيب من ريحها . فقلت
في نفسي :

— هذه الألوان قد أكلتها ، وبقي الكف والمعصم كيف أصل
إلى صاحبتها ؟ .

ثم رفع الطعام ، وجأؤونا بوضوء فتوضأنا ، وصرنا إلى بيت المنادمة
فاذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين . وجعل صاحب المنزل يلطف بي ويميل على
بالحديث ، والندماء لا يشكون أن ذلك منه على معرفة متقدمة . حتى إذا
شربنا أقداحا ، خرجت عليه اجارية كأنها بان ، تتثنى كخنيزران . فأقبلت
فصلمت غير خجلة ، وثبت لها وسادة فجلست ، وأتى بالعود فوضع في
حجرها ، فحسته فاستنبتت في جسها حذقها . ثم اندفعت تغنى :

توهها طرفي فأصبح خدها

وفيه ومكان الوهم من نظري أثر

وصاخها كفي فآلم كفها

فنمس كفي في أنا ما لها عقر

فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها . ثم اندفعت تقى :

أشرت إليها هل عرفت مودتى

فردت بطرف العين إني على العهد

فحدت عن الاظهار عمداً لسرها

وحادت عن الاظهار أيضاً على عمد

فصحت « يا سلام » . . . وجاءنى من الطرب مالا أملك نفسى .

ثم اندفعت ففنت الثالث :

أليس عجيباً أف يتنا يضمنى

وإياك لا نخلو ولا تتكلم

سوى أعين تشكو الهوى بحفونها

وتقطع أنفاس على النار تضرم

إشارة أفواه وغمز حواجب

وتكسير أجفان وكف يلم

ففسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرقها بالغناء ، وأصابها معنى

الشعر ، وأنها لم تخرج عن الفن الذى ابتدأت به ، فقلت : « بقى عليك

يا جارية . . . » ، فضربت بعودها الأرض وقالت : « متى كنتم

تمضرون مجالسكم البغضاء ! » فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم

تغيروا الى . فقلت : « أما عندكم عود غير هذا ؟ » قالوا : « بلى » فأحضروا الى .

عوداً فأصلحت من شأنه ، ثم غنيت :
ما للننازل لا يحجن حزناً
أصممن أم قدم المدى فبلينا
راحوا العشية روحة منكورة
إن متن متنا أو حين حيننا

فما أنتمت حتى قامت الجارية فأكبت على رجلى تقبلها وقالت :
— معذرة إليك ، فوالله ما سمعت أحداً يفنى هذا الصوت غناءك !
وقام مولاهما وأهل المجلس ففعلوا فعلها ، وطرب القوم والله واستحشوا
الشراب ، فشربوا بالسكاسات والطاسات .

ثم اندفعت أغنى :

أبي الله أن تمشى ولا تذكرينى

وقد سفت عيناى من ذكر الدما

فردى مصاب القلب أنت قتله

ولا تتركه ذاهل العقل مغرماً

إلى الله أشكو بخلها وسماحتى

لها غسل منى وتيدل علقما

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم . فأمسكت عنهم ساعة حتى

تراجعوا . ثم اندفعت أغنى الثالث :

هذا محبك مطوى على كمده
حرّاً مدامعه تجري على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته
مما جنى ويد أخرى على كبده

— فجعلت الجارية تصيح :

هذا هو الغناء والله يا سيدى لا ما كنا فيه !
وسكر القوم . وكان صاحب المنزل حسن الشرب صحيح العقل ،
فأمر غلامه أن يخرجهم ويحفظوهم إلى منازلهم وخلوت معه .
فلما شربنا أقداحا قال :

— يا هذا ، ذهب ما مضى من أيامى ضياعاً إذ كنت لا أعرفك ،
فمن أنت يا مولاي ؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر . فقام وقبل رأسى وقال :
وأنا أعجب يا سيدى أن يكون هذا الأدب إلا لملك ، وأنى لى
أجالس الخلفاء ولا أشعر !

ثم سألتنى عن قصتى فأخبرته ، حتى بلغت خبر السكف والمعصم . .
فقال للجارية :

— قومى فقولى لفلانة تنزل .

ثم لم يزل ينزل لي جواريه واحدة بعد أخرى ، وأنظر إلى كهفها ومعصمها وأقول :

— ليست هي .

حتى قال : والله ما بقي غير زوجتي وأختي ، والله لأنزلنهما إليك .
فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت :

— جعلت فداءك ، إبدأ بالأخت قبل الزوجة ، فمساها هي !
فبرزت . فلما رأيت كفها ومعصمها .

قلت : هي هذه !

فأمر غلمانہ فمضوا إلى عشر مشايخ من جلة جيرانه ، فاقبلوا بهم ،
وأمر بیدرتين فيهما عشرون ألف درهم فقال للمشايخ :

— هذه أختي فلانة أشهدكم أني قد زوجها من سيدي إبراهيم بن
المهدي ، وأمهرتها عنه عشرين ألفاً .

ثم دفع إليها البدره . و فرق الأخرى على المشايخ وقال لهم : انصرفوا
ثم قال لي : ياسيدي ، أهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك ؟ .

فاحتشمني ما رأيت من كرمه ، فقلت :

— بل أحملها إلى منزلي .

قال : ما شئت .

فحملتها إلى منزلي . فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز
ما ضاق عنه بعض ميوتنا . . . فأولدتها هذا القائم على رأس أمير
المؤمنين . . . »

1871

1872

1873

1874

1875

1876

1877

1878

1879

1880

1881

1882

1883

1884

1885

1886

1887

1888

1889

1890

الفصل الخامس عشر

عجب المأمون لحديث وزيره ، ولتطفيله الظريف تلك الليلة ، فأمر
بإحضار أشعب الطفيلي . فجاء أشعب يتعثر خوفاً ، فابتدره المأمون قائلاً :
— هل لك في « ثريدة » مغمورة بالزبد ، مشققة باللحم ، تفوح

بروائح الأباذير ؟

فقال أشعب :

— وأضربكم ؟

فكتم المأمون ضحكته وقال :

— بل تأكلها من غير ضرب .

فنظر أشعب إلى المأمون ملياً ثم قال :

— هذا مالا يكون ، ولكن كم الضرب فأقدم على بصيرة .

فضحك المأمون ، وضحك وزيره . ثم التفت المأمون إلى أشعب قائلاً

— قد علمت أنك ذو بصر بالطعام . فما تقول في « اللوزينج »

و « الفالودج » . . . أيهما أطيب ؟

فأجاب أشعب :

— يا أمير المؤمنين ، لا أقضى على غائب .

فأمر المأمون ، فأحضرت مائدة عليها هذان اللونان . وقال لأشعب :
— اقض بينهما الآن .

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان . . وجعل يأكل من
« الفالودج » ساعة ، ومن « اللوزينج » ساعة وهو ساكت لا ينبس
بحرف . وقد انتفخ منه بالطعام وازدحم حلقه من الازدراء . فقال المأمون :
— قل . . . أيهما أطيب ؟

وقال الوزير :

— اقض لأحدهما .

فتردد أشعب وحار بين اللونين . ثم عاد فأخذ من هذا لقمة ومن
ذاك لقمة . وقال :

— يا أمير المؤمنين ! كلما أردت أن أقضى لأحدهما أدلى الآخر بحجته .

فضحك المأمون واستظرفه وقال له :

— تشهى على . . أى لون تريد ؟

فاطمأن أشعب وقال مترنماً :

ألا ليت خبزاً قد تسربل رائباً

وخيلاً من البرنى فرسانها الزيد

فأمر المأمون أن يحضروا له ما اشتهى . وجعل ينظر إليه وهو يأكل

حتى فرغ . فقال له :

— شبعث ؟

فقال أشعب :

— نعم أطال الله بقاء أمير المؤمنين .

وتأمل المأمون ثياب أشعب فلم ترقه . وقال له :

— لست أرى عليك كسوة رائعة !

فلم يجد أشعب ما يقول . ثم تفكر وقال :

— كانت على أصلحك الله ثياب نظيفة . غير أنني قبل أن يأتوا بي

إلى أمير المؤمنين كانت قد أخذتني إغفاءة ، فرأيت رؤيا نصفها حق
ونصفها باطل .

فقال المأمون دهشاً :

— وكيف ذلك ؟

فقال أشعب :

— رأيت أنني أحمل بدرة من ذهب ، فمن شدة ثقلها على كنت

أصلح في ثيابي . ثم انتهت . فإذا أنا بالسلح . . . ولا بدرة .

فضحك المأمون حتى استند إلى الوسادة . وقال :

— نحقق لك النصف الآخر . ولكن أخبرني قبل ذلك . ممن أنت ؟

فقال أشعب :

— من المدينة يا أمير المؤمنين .

فقال المأمون :

— وكيف وجدوك بالبصرة ؟

وتذكر أشعب كل ما وقع . فرأى الخير في أن يوجز فقال :

— خرجت من المدينة للصيد فضلت ، وإذا أنا في البصرة .

فنظر المأمون إليه ملياً وقال له :

— وهل صدت شيئاً ؟

فتنحنح أشعب وقال للمخاطب لنفسه :

— صدت الكلب .

فضحك المأمون . وأعجبه حديثه . ولبت يصنى إليه وإلى نواده .

ساعات طويلة : ثم قال له آخر الأمر :

— سل حاجتك :

فقال أشعب :

— كلب صيد أصطاد به .

فقال المأمون متعجباً ضاحكاً :

— قد أمرنا لك بكلب نصطاد به .

فقال أشعب :

— وغلام يقود الكلب .

فقال المأمون :

— قد أمرنا لك بغلام .

فقال أشعب :

— وخادم تطبخ لنا الصيد .

فقال المأمون :

— وأمرنا لك بخادم .

فقال أشعب :

— ودار نأوى إليها .

فقال المأمون :

— أمرنا لك بدار .

فقال أشعب :

— بقي الآن المعاش .

فقال المأمون :

— قد أقطعناك ألف « جريب » عامرة ، وألف « جريب » غامرة

فقال أشعب :

— وما الغامرة ؟

فقال المأمون :

— التي لا تعمر .

فقال أشعب من فوره :

— فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من صحارى نجد وفيافي بني أسد؟

فضحك المأمون وقال :

— نجعلها لك إذن كلها عامرة .

فقال أشعب :

-- لم يبق الآن إلا شيثان .

فقال المأمون :

— هات .

فقال أشعب :

— أن تقيم معي في هذه الضياع جارية حسنة الصوت كنت أعلمها

الغناء بالمدينة . يقال لها « رشاً » !

-- وكيف هي ؟

فتنهذ أشعب وقال مترنماً :

كانها أفرغت في قشر لؤلؤة في كل جارية منها لها قر

فقال المأمون :

-- قد زوجناك منها وأمهراها عنك عشرين ألف درهم ! تلك

واحدة . فما الأخرى ؟

فقال أشعب :

— الأخرى أن تسمح لي يا أمير المؤمنين أن أعزل صناعة التطفيل ،

وأن استخلف عليها خليفة من بعدى ، وأن أكتب بذلك عهداً إلى صديق لى يدعى بنان ليكون هو منذ اليوم إمام الطفيليين وعريفهم .

فضحك المأمون وقال :

-- وذلك أيضاً لك .

ثم دعى بالكاتب والقرطاس . وقال لأشعب يملئ عهده .

فقال أشعب للكاتب :

-- أكتب :

« هذا ما عهد أشعب إلى بنان حين استخلفه على إحياء سنته واستنابه فى حفظ رسومه من التطفيل على أهل المدينة ، وما يتصل بهما من أكنافها ، ويجرى معها من سوادها وأطرافها ، وذلك لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ولما رآه أهلاله من شدة مكانه فى هذه الرفاهية المهملة التى فطن لها ، والرافعية المطرحة التى اهتدى إليها . والنعم العائدة على لابسها بلاذ الطعوم ، ومناعم الجسوم ، متورداً على من اتسعت مواد ماله ، وتفرغت شعب حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، وأظفره ببدايع الطيبات ، أخذاً من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف وضارباً فيه بمهم الخليط المفاوض . وهذا عهدى إليه . وحجتى عليه . فليكن بأوامره مؤتمراً ولرسومه متبعاً إن شاء الله وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو حسبنا جميعاً ونعم الوكيل . . . »

وسكت أشعب ونظر فاذا المأمون ووزيره يتقطعان ضحكا ، وهذا
المأمون فقال لأشعب

— هل بقيت لك حاجة لم تقض ؟

فقال أشعب :

— نعم ، حاجة أخيرة .

فقال المأمون :

— قل .

فقال أشعب :

— أن يأذن لي أمير المؤمنين في تقييل يده !

فقال المأمون :

— أما هذه فدعها .

فقال أشعب :

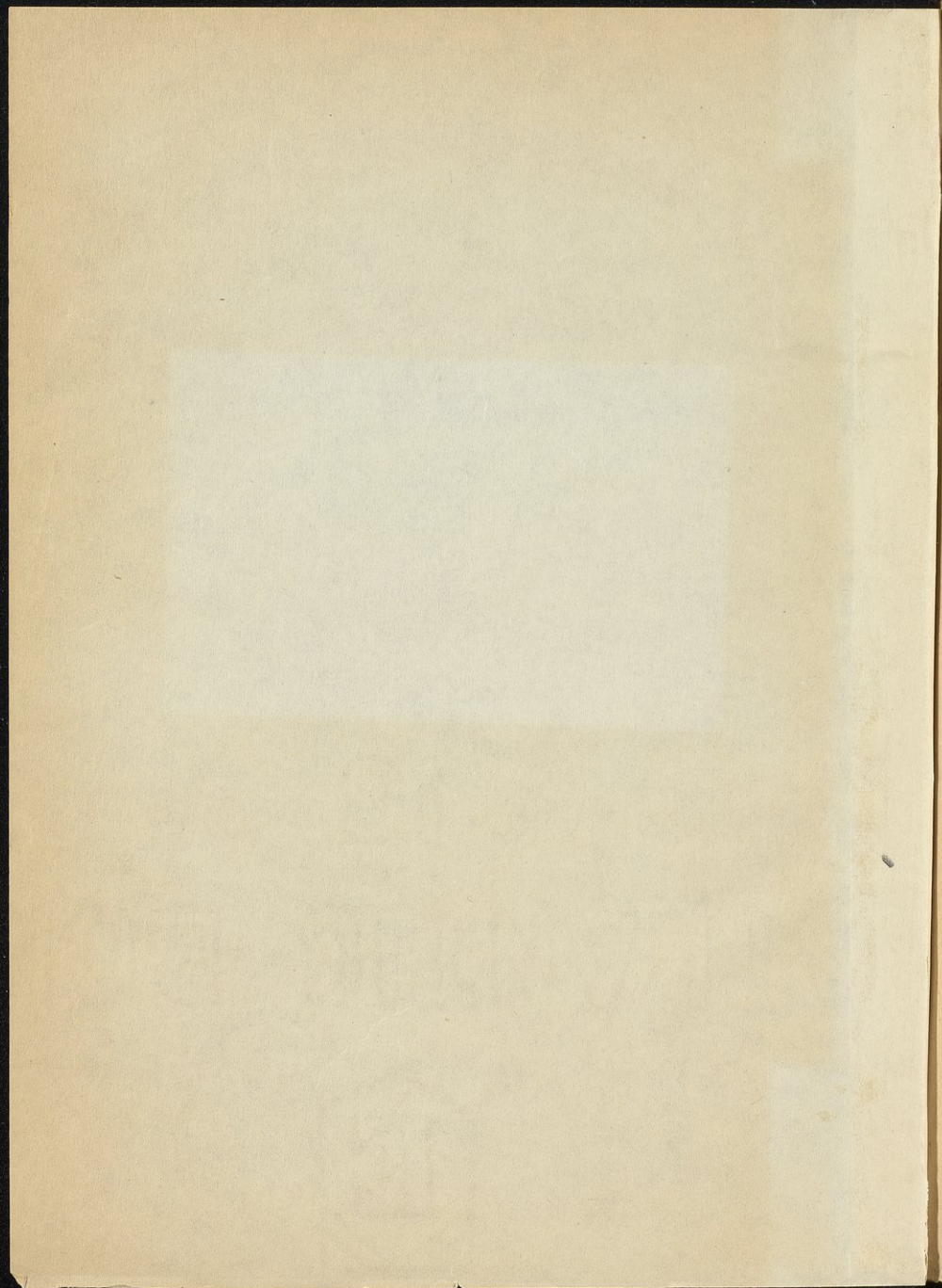
— ما تمنى شيئا أحب إليّ منها !

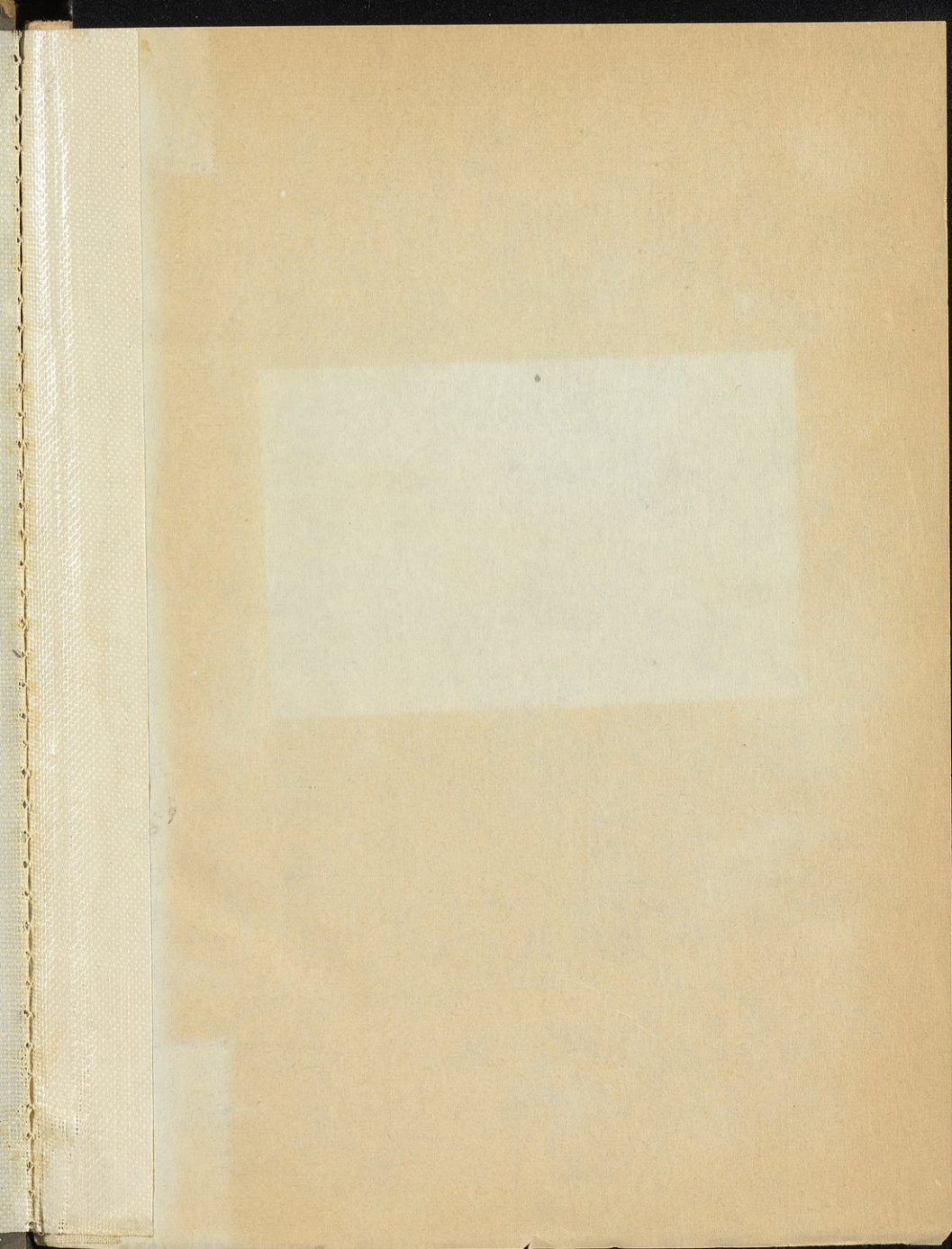
وأسرع إلى يد المأمون فاخطفها اختطاف الجائع للرغيف ، ورفعهما

إلى فمه ، وأشبعهما لثما وتقييلا . . .

« انتهى »







LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072538984

